نصف رأس

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد

يونس محمود يونس

نصف رأس

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٢١

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(بالضرورةِ)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

لأجلك كتبت

ولأنك فارقتني إلى الأبد

لم أجد ما أقدمه لك سوى هذه القصص

إلى

عزيزة محمد يونس

أمي

الفصل الأول

لأنّ الشمس ستشرق عمّا قريب... سأقول لك صباح الخير...

لكن لماذا أنت صامت كالتمثال في عتمة هذا الليل؟ وفي هذا الوقت المتأخر نوعاً ما؟! هل وجدت الوقت مناسباً لتطلق تصوراتك دون قيد!؟ أظنّ أنّ ما من أحد يقيّد حريتك الآن...

لقد عرفت هذه التجربة في زنزانتي، وهناك تعلمت في الأقفاص المغلقة لعبة التحدي. إذ تعلمت القفز والتشقلب في الفراغ المتاح، وعند الفجر الذي يشبه كثيراً وجه حبيبتي... كنت أقف على يدي وأتحدّث إلى الجدران. فماذا تعلمت أنت؟

أظن أنك كنت هادئاً في شبابك كما أنت اليوم؟ في تلك الأيام أطلق عليك اللعّان لقب (العجل) لأنّ رأسك كبير بعض الشيء، ولعلّك كنت تملك شيئاً من الحكمة... أما الآن فإنّ حكمتك أثمرت هدوءاً ووجاهة كما أرى.

عندما سمعت بلقبك هذا. أعجبتني قدرة اللعّان على الملاحظة واختيار الألقاب... لأنّ نظرتك هادئة جدّاً، وهذه النظرات تحديداً

يمكن ملاحظتها في وجوه الثيران. فهي وقورة أيضاً، ولا تحبّ الجدل. أظنّ أنك لا تجد مبرّراً للاعتراض؟ فأنت وإن لم تكن ثوراً إلا أنك تملك مزرعة لتربية الثيران، وهذا أمر مهمّ، وأظن أنّ أهميته تكمن في ماضيك. لأنك كنت مسؤولاً بارزاً، وكنت تأمل في تلك المرحلة من شبابك بمسؤوليات أرقى وأهمّ... لكنّ ما حدث قد حدث، وأنا لست هنا لأتشفى بك... لأنني لست من أولئك الأشخاص الوقحين، ولا أظن أنّ من زحلقوك إلى هذا الدرك هم أفضل منك... بالعكس من ذلك فأنا متأكد من أنهم جميعاً بلا مواهب، وقد يكون مستوى ذكائهم دون الوسط، ولكن القضية ليست هنا، وما جئت إليك من أجل هذه السخافات... بل لأروي لك ما أعتبره أكثر أهمية.

منذ أيام فقط وبينما كنت واقفاً أمام منزلي بانتظار سيارة الركاب... فاجأتني أزهار اللوز المبللة بماء المطر... لقد فاجأتني حقا لأنني لم أكن أعلم بوجودها، وحتى السماء الخالية من الغيوم فاجأتني أيضا... لأنّ أمطاراً غزيرة سقطت في الليل.

وإذ كنت على عجلة من أمري، وهذا دأبي دائماً... فقد أثارت فيّ تلك الأزهار البيضاء دفقة من الحنين إلى حبيبتي... أنت لا تعرفها

حتماً، ولو أنك رأيتها يوماً، أو سمعت صوتها. لعرفت ما هو السحر الجميل... إنه السحر الذي يسيطر على عقلك وعواطفك إلى درجة الاستلاب الكامل... فهي أشبة بإلهة الحب، وإذا كنتُ غير قادر على تأكيد هذا الأمر بالاستدلال المنطقي... إلا أنني أبدو متأكداً من أنّ معرفتي بها وحبي لها أبعد من إدراكي المباشر لعلاقتنا، وقد رسخت هذه القناعة في ذهني بسبب الرؤى والتفكير العميق بها، وأذكر أنني قلت لها ذات مرة: أنت المعبد الذي تسكنه روحي... فلما افترقنا، وكانت المرة الأولى التي نفترق فيها كما أزعم... بنيت لها معبداً وزينته بكل الألوان.

كل ما أعرفه أنني التقيت بها مرة أخرى... فكأنني لم أفترق عنها لحظة واحدة، أو كأنّ عقوداً من الزمن اختفت في طرفة عين، أو لعل هذا الزمن لم يكن موجوداً من الأساس، ولك أن تعلم أنّ حبي لها لم يتأثر أبداً بأدبيات هذا العصر الذي نعيشه الآن. ليس هذا تخمينا فقط... لأنني أعتقد أنّ أكثر ما يواجه الإنسان المعاصر هو هذه الفيروسات التي تقرض عواطفه لأغراض قد تكون عشوائية أو مدروسة بعناية، وبالتالي فإنّ البحث عن التوازن في هذا العالم المزدحم قد لا يكون سهلاً، وإذا كنت ما أزال قادراً على

تحمل تبعات وجودي. فلأنّ عواطفي وجدت طريقة ما للاتساق مع ألعابي التي ابتدعتها كأسلوب مرن مكّنني من التعامل مع نفسي والآخرين.

لهذا السبب فإنّ تعلّقي بحبيبتي هذه وبلقبي الجديد (البهلوان) أمران لا أجادل فيهما، ولماذا الجدل طالما أنني أحبّ هذه المرأة وأحبّ القفز والمشي بالمقلوب عند أيّ طارئ يداهمني؟ وعلى سبيل المثال وليس الحصر. فعندما تجبرني الظروف على مراجعة موظف ما. أقوم ببعض الألعاب قبل الدخول إليه، وإذا ما أُجبرت على التملّق ودفع الرشوة. فإنّ أفضل ما أفعله هو المشي على يديّ، وإذا ما جادلني جاهل بأمر من أمور هذه الدنيا... لا أجد أفضل من السير إلى الخلف حتى لا يدهسني ذلك الجاهل بقوة يقينه.

وكما صار واضحاً. أصبحت بالنسبة لمن يعرفونني بديهية غير قابلة للجدل... تماما مثل كل البديهيات التي لا تحتاج إلى شرح أو تفسير، وإذا ما أراد شخص ما التوضيح والاستفسار... لن يسمع جواباً لأنّ لغة التخاطب بيننا تقتصر في هذه الحالة على بعض الألعاب البهلوانية، وبغض النظر عن ماهية الآراء

والأفكار التي قد أسمعها بين وقت وآخر. فإني أصغي إلى بهلواني خاصة عندما أُجبَر على اتخاذ قرار ما.

في ذلك اليوم تحديدا وبعد أن نقلتني السيارة إلى مقصف **(الدلبة)**. وجدت أصدقائي وقد حضروا جميعاً، وكان النادل قد وضع أمامهم على طاولتين متلاصقتين زجاجات الماء ونوعين من الكؤوس... ففهمت أنّ حفلة الشراب لم تبدأ بعد، ولعلّ صديقي أبو محمد كان الأكثر استياء من تأخري. ربما لأنه حمل معه قصة لقراءتها، وربما لأنّ كأس العرق التي يحتاجها بشدة في مثل هذه المناسبات تأخرت بعض الشيء.

بعد أن ملأنا كؤوسنا من زجاجة العرق التي أحضرها النادل. أخذ أبو محمد يقرأ القصّة، وباختصار فهي تتناول الثقة المفقودة بين بطل القصّة والدولة القمعية شبه الدينية مبرراً بذلك انكفاء البطل عن القيام بأي فعل، وقد حاول الكاتب. الذي هو أبو محمد أن يقنع القارئ بموقفه هذا من خلال متابعته للكثير من الشخصيات التاريخية التي دفعت بهم هذه الدولة أو حكامها التاريخيين إلى التشرد والبؤس رغم أهميتهم وخدماتهم الكثيرة.

ما أريد قوله لك هو أنّ القصّة لم تعجبني... ليس لأنني من أنصار الدولة القمعية، وليس لأنّ مقولة القصّة غير صادقة. بل لأنّ بطل القصّة عاجز وكاذب، والتبرير الذي ساقه الكاتب لم يقنعني...

هذا ما قلته لأبي محمد. فحدثت بيننا مشادّة كلامية بدأت هادئة وعاقلة، ثم تطورت إلى ما يشبه العراك، ولولا وجودنا في مكان عام ربما تطور الأمر إلى عراك بالأيدي... أما العرق فكان أشبه بالوقود الذي يزيد النار اشتعالاً.

هذا الوضع جعلني أقفز وأتشقلب قبل أن أنسحب. فلحق بي يوسف. أحد أفراد الشلة... يعمل في المرفأ، ويكبرني بعقد كامل تقريباً. أراد أن يتودّد إليّ لأنه أعجب بي كما قال. فأصغيت إليه عندما وجدت في حديثه ما يشجعني على ابتكار لعبة جديدة.

من جهة أخرى. أعجبتني بساطته الواضحة. بمعنى أنه لا يميل إلى التكلف والادعاء. لكنه ليس بسيطاً حين يمتلك زمام الحديث... إضافة إلى تجربته الغنية، والتي تبدأ بطفولته، ثم دراسته، وأخيراً وظيفته التي حمته من غائلة الجوع، وهناك صفات أخرى. منها أنه لا يتعب من السير، وجسمه متناسق متين، وله

صوت يتميز برنين، وهو حالم من الطراز الأول. إذ يستطيع أن يحلم عندما يكون خارج منزله بلقاء امرأة ما، والأفضل أن تكون قارئة للكتب... خاصة الروايات التي تُعنى بمهاجمة التقاليد والعادات البالية، وإذا كانت متحررة وقادرة على الخوض في أي حديث أو مغامرة. عندئذ قد يفكر في دعوتها إلى تناول كأس من البيرة.

لقد عبّر لي يوسف عن نفوره من الطريقة التي يشرب فيها أبو محمد العرق. بعد ذلك انتقل فجأة للحديث عن امرأة معجبة بي. حيث أَخبَرته المرأة كما قال عن إعجابها بأسلوب القفز الذي قمت به ذات يوم في ساحة التمثال، ولأنها لم تستطع أن تحدثني أو تأسرني بسحرها الأنثوي. اعتبرتني شخصاً يستحق العقاب.

هذا ما استخلصته من حديث يوسف عن المرأة المعجبة بي، وطبعاً سألته عن علاقته بها، وكيف تعرف بها. إلا أنه لم يحدثني عن هذا الأمر. لقد اكتفى بأن قال «إنّ وجهها جميل جداً، جداً».

الفصل الثاني

أظنّ أنّ يوسف لم يكن مخطئاً عندما حدثني عن جمال تلك المرأة. لأنني عندما رأيتها في وقت لاحق. اعتراني ذهول شديد، وتذكرت ما قاله لي:

«إنّ وجهها جميل جدّاً. جدّاً» لكن ولكي أكون صادقاً ومنسجماً مع نفسي. قلت ليوسف «حبيبتي تكفيني»، وقلت أيضاً «إنّ أي امرأة باستثناء حبيبتي تكون أجمل حين تظلّ بعيدة عني» ولهذا ربما توقف الحديث بيننا لحظات.

لقد نظر إلي بكثير من الشك، ثم طلب مني أن نستريح بعض الوقت في ظلّ إحدى الأشجار. فقد كان الطقس حارّاً بعض الشيء، وكما تعلم فإنّ سطوع الشمس بعد المطر يكون شديداً. فجلسنا كيفما اتفق، وبعد أن أشعل يوسف سيجارة. قال:

- آه لو تعلم كم سهرت الليالي منتظراً عروس البحر؟

ثم قال وكأنه أراد أن يسخر من سيرة حياته:

- لطالما اعتقدت أنني سأجد من يهبني بعض ما أحتاجه.

عندئذ ضحكت ساخراً... أما يوسف فقد أخذ نفساً من سيجارته ثم تابع قائلاً:

- قبل ولادتي بأربع سنوات حلّت النكبة بأرض فلسطين...

قال ذلك ونظر في وجهي ليعرف كيف أستقبل حديثه عن نكبة فلسطين، وطبعا لا أعرف ماذا قرأ في وجهي؟ لعله وجد ما يشجعه على الاستمرار... فقال متابعاً.

- أعلم أنّ الوقت ليس مناسباً، ولكن أريدك أن تعلم أنني ولدت قبل النكبة، وعندما حلّت النكسة بنا كنت قد أصبحت رجلاً، ثم جاءت حرب أخرى، وكنت أحد المشاركين بها، ولا أقول إنّ مشاركتي في تلك الحرب كانت مبهجة على كل حال. لأنّ الحرب لم تكن حاسمة... ما أريد قوله: ليس تعداد الحروب التي وقعت، ولا تعداد أسبابها ونتائجها. فهي ما تزال موجودة في ذاكرتنا، وقد يجد لها المؤرخون يوماً ما مساحة في كتب التاريخ... غير أنّ فترة الهدوء التي عرفناها خلال العقود الماضية لم تمح من مخيلتي

صورة الحرب القادمة... متى تحدث؟ وكيف ستحدث؟ لكن لم يخطر ببالي أبداً أنها ستحدث في مدننا وقرانا.

وبما أنها حدثت، ولم يعد هناك ما يمكن إخفاؤه أو التستر عليه. أتذكّر بوضوح أولئك الذين فتحوا أنفاقاً تحت جدران الانتظار بغية جمع الثروات والاستمتاع بالطعام والجنس، ومن لم يستطع إيجاد نفق مناسب. أقصد من كان على شاكلتي. كظم غيظه بانتظار الفرج، وأنت تعلم كيف تجري الأمور؟! خلال عشر سنوات قضيتها في المرفأ لم أحصل إلا على بعض الفتات. في حين أنّ أمين المستودع يستطيع أن يتباهى بثروته التي تجاوزت ثروة هارون الرشيد، وثروة عامله أهم من ثروة أبي النواس.

إنّ هؤلاء الرجال الذين جاؤوا من رحم المثل والقيم الرائعة. كالوطنية، والشرف، والنزاهة، والحلال، والإخلاص. جاؤوا وهم يحفظون خطابهم في قلوبهم وألسنتهم، ولكن ألم تسمع بذاك العبد التقيّ؟ إنه أحد العبيد الذين اشتهروا بالعبادة والتقوى، وقد حظي هذا العبد بموافقة أميره على تعيينه والياً. فلما شاهد ذهب الخزينة سال لعابه، ثم هبش من الذهب هبشة اشترى بها بيوتاً ونساء، وحتماً شكر الله على محبته له. لكنّ أميره ما لبث أن علم بالأمر.

فأرسل له رسالة يطلب فيها إعادة المال إلى موضعه، وفي الرسالة ذكّره الأمير بآيات من كتاب الله وأحاديث عن الرسول كلها تحضّه على إعادة المال إلى مستحقيه... غير أنّ هذا العبد التقيّ رفض الرسالة مفضّلا متاع الدنيا على الآخرة.

وتابع يوسف قائلاً:

نعم هذا ما حدث مع العبد الذي أفسدته الولاية، والرجال الذين أتحدّث عنهم ليسوا أفضل منه، وإذا كان التاريخ لا يكرّر نفسه كما قد يتصوّر البعض... إلا أنّ هذه الأرض المحكومة بفكرة الخلافة، وتقديس الحكّام. إضافة إلى الحداثة التي تتطلب الكثير من المال. كل هذا يدلّل على بقائنا في جوف الماضي.

نعم لهذا السبب تراني أكره الماضي وهذا الحاضر، وإذا لم تتح لي الفرصة لأختلس ما هو أكثر أهمية من الحبال، أو بعض السكّر والرز، أو لتر ويسكي أحصل عليه من قبطان إحدى البواخر. فهذا لا يعني أنني راض بهذا الفتات.

بعد أن أطلعني يوسف على بعض أسراره. قفزت مرات عدة، ومشيت على يدي عشر خطوات كاملة... لقد أردت التعبير عما

بلغني من صديقي الجديد، وما بلغني لم يكن جديراً بألعاب أفضل من تلك التي قمت بها.

العابرون الذين شاهدوني فوجئوا بتلك القفزات. فاعتقدوا أنني أقوم بها استعراضاً لمهارتي في القفز والمشي بالمقلوب. هذا ما ينبغي التأكيد عليه. لأنّ شخصاً ما حاول تقليدي فسقط منكبّاً على وجهه، وعندئذ قال له يوسف:

- لو كنت تستطيع المشي كما يجب لقلنا ماشي الحال. لكن أن تقفز وأنت في هذه الحالة؟ ما هكذا تحارب الدول.

عندئذ ابتسم الرجل خجلا، ثم انصرف متابعاً سيره. أما يوسف فقال موجهاً كلامه لي:

- إنك تذكّرني بالسيد طاووز، ورغم الفارق بينكما. أظن أنّ هناك شبها يتراءى لي من ثقب إبرة. ما رأيك؟

قلت:

- لا أدري بماذا أجيبك؟ ولكن أظنّ أنّ السيّد طاووز لا يشبهني، ولا يريد أن يتشبّه بي.

- ولكن ماذا عنك أنت؟

أربكني سؤاله وتلعثمت. لكني أوضحت له أنّ السيّد طاووز وإن كان يستحوذ على شيء من اهتمامي. لكن لا أكثر ولا أقلّ من الآخرين. أما زعامته وكل الزعامات الأخرى فلتذهب إلى الجحيم. لأنها لا توجد إلا في المجتمعات المتخلفة الجائعة.

عندئذ قهقه يوسف بطريقة أثارت غيظي، وكي ينأى بنفسه عن آثار القهقهة التي أطلقها. أكمل حديثه قائلاً:

- أظنّ أنني شخص وقح بعض الشيء، وما قلته لك منذ قليل يعبر عن وقاحة لا مبرّر لها. لأنك حقاً لا تشبه السيد طاووز، ولا تريد أن تتشبّه به... أما السيّد دركون الذي حاول شراء المرفأ فقد لا يكون أفضل من زبد الموج. لأنه جاء بثروته من دون أن يعرف أحد كيف جاء بها ولماذا؟ إنّ أمره ملتبس جدّاً، وكما تعلم فإنه ظهر كفقاعة الصابون ثم اختفى كفقاعة الصابون رغم ثروته وكل الضجيج الذي أعقب موته.

أما أنا ولا تتعجب إن قلت لك إنني شقيّ محبط، وكثيراً ما أصغيت إلى ضميري بشيء من السخرية... أليس ذلك غريباً؟ هل تعرف ما هو الضمير؟ أنا لا أعرف. لهذا السبب ربما بقيت متشبثاً بمكاني مثل أغلب الحكام العرب، ومثلهم تعلمت الواقعية

واحترام الأقوياء، وبما أنني موظف مأمور. وقعت على كاهلي مسؤولية بناء هذا الوطن. فانتظمت مع الآخرين في بوتقة واحدة لتجميع قوانا وبرامجنا وأهدافنا ومشاعرنا أيضاً، ولكي يصبح هذا التجمع قوة فاعلة يهابها الطامعون فينا. أصبحنا نرتدي قناعاً واحداً، ونردّد شعاراً واحداً، وحتى الخطباء في المساجد باتوا يقرؤون خطبة واحدة، والرسامون والموسيقيون والنحاتون والكتّاب كلهم باتوا يعبّرون بطريقة واحدة.

الشيء الوحيد الذي بقي على حاله هو اسمي ورصيف المرفأ. لقد حافظت على اسمي في حين كنت أرى أسماء تذهب وأسماء تأتي، والروافع الضخمة تفرغ بواخر وتملأ بواخر، والأنفاق تُردم، ثم تُفتح أنفاق أخرى، والهواء البحري الرطب يرفع الموج في كل شتاء ليمحو آثار الأنفاق والأسماء.

خلال هذه الحقبة كتب عبد الرحمن منيف روايته (مدن الملح) وفي هذه الرواية لم أجد ما يعزّز ثقتي بالمدن العربية. فقد زادت الثروة من تبعيتنا بدل أن تعزّز من استقلالنا، وباستثناء رواية مدن الملح، وبعض الكتب الأخرى. فإن الكثير من الكتب السخيفة بيعت بقوة الأمر الإداري لمن لا يقرؤون أبداً.

مفارقات عجيبة كادت أن تفقدني عقلي، ولولا صبري ووقاحتي لانتهيت في قوقعة صغيرة بحجم قوقعة حلزون... تصوّر كيف سأكون عندما أختبئ في هكذا قوقعة. ليتك تسأل زوجتي عن هذا الأمر. لأننا وبعد أن تزوجنا لم نتفق يوماً واحداً. لكن ماذا عنك أنت؟ ليتك تحدثني لأسكت، وإلا فإنني قد لا أتوقف أبداً.

لم يكن ما قاله يوسف مسليّاً على كل حال. إلا أنني بقيت صامتا. فعاد إلى القول:

- كان لي أصدقاء، وكنا نلتقي لنغرّد معا نشيد المستقبل بأصواتنا المتآلفة. يجمعنا حبّ النقد واكتشاف المهم في حاضرنا ومستقبلنا، ولكي نبقى أحراراً. لم نقترب مما يرهبنا ولم نعترف بوجوده، ولكن أستطيع القول: إنّ واحداً منا على الأقل كان على صلة برجال الأمن. فلما اكتشفنا ملامح المستقبل الذي ينتظرنا... تفرقنا كل إلى شأنه وشؤونه.

لقد أصبحت أنا الآن في الخامسة والخمسين، ولكن ما الذي أذكره من هذه السنين التي عشتها. لا شيء تقريباً. لا شيء سوى هذا السخف الذي حدثتك عنه، والغريب أنني لم أدرك ماهية الحياة ومأساتها إلا بعد أن استقبلت ابني شهيداً.

آنذاك تحولت إلى حيوان جريح، ورحت أتألم. كنت أسمع أنين الحيوان في داخلي وهو يتألم من شدة القهر. فهل كنت حيواناً منذ البداية؟ أهذا ما كنته حقا؟

هكذا أنهى يوسف ذلك الفصل من سيرة حياته. فقلت مستدركا:

- رحم الله كل شهداء هذا الوطن...

قلت ذلك، ثم رحت أقفز عمودياً، وقد قمت بهذه القفزات من أجل لعبة أخرى. فلما أحسست بقدرتي على القيام بها. اتخذت وضعية المروحة ثم رحت أدور كالزوبعة.

الفصل الثالث

هكذا تركت يوسف دون أن ألتفت إليه، وطبعاً لم أنشغل بحديثه. لأنّ ما سمعته منه لا يحمل جديداً. كل موظف لم تتح له فرصة الاختلاس يسمعك هذا الموشح، وكل موظف حظي بفرصة الاختلاس يسمعك موشحاً أكثر رصانة. الوضع برمته سخيف، وعندما لا تجد غير أولئك المدمنين اللاهثين وراء السخف يحقّ لك أن تعتق تصوراتك من كل قيد.

ألست محقّاً أيها التمثال؟ لا بأس عليك، ويمكنك أن تظل صامتاً كي أحدثك عن رحلتي إلى المعبد... أقصد مقام الرجل الصالح، وإذا كنت أسميه المعبد. فلأنه يذكّرني بمعبد حبيبتي. نعم لقد بنيت لها معبداً، ورسمت صورتها على الحائط المقابل لمدخل المعبد، وعلى الجدران الأخرى رسمت الكثير من صور عشاقها، وكما أذكر فقد كانت الزائرة الأولى لذاك المعبد.

وجدتها عند بوابة سور المعبد عندما كنت أحمل حقيبتي مغادراً المكان، وأظنّ أنها كانت تنتظر من يُدخلها إلى المعبد.

فتحدثنا بضع دقائق، وأذكر أنني طلبت منها أن تدخل المعبد كزائرة ليس إلا. لأنّ الخدمة فيه سوف تنتقل من يد إلى أخرى، وطبعاً لم أستجب لطلبها في الدخول معها لأنني كنت مصمماً على الرحيل، ولا أذكر أني رفضت لها طلباً آخر.

أعود إلى رحلتي إلى مقام الرجل الصالح. إذ ساعدني الطقس اللطيف على الوصول سيراً على قدميّ دون مشقة تذكر. أما ما أردته من هذه الزيارة. فيمكن حصره بالنزهة من جهة، والإطلاع على المزاج العام من جهة أخرى. علماً أنّ هذا المزاج كان قد تضخم في الآونة الأخيرة مثل جيفة ألقي بها في العراء، ولكن هل كنت مضطرا لهذه الرحلة؟ أو هل كان الأمر ضرورياً؟ ربما كان الجواب **(لا)** لأنني لو تجاهلت المقام وكل المهتمين به، أو قمت بزيارة أي مكان آخر. فإنني سأعود من تلك الزيارات ولسان حالي يقول:

«إنّ الشعور بالانتصار الكاذب لا بد أن يفعل فعله في المزاج العام». بحيث أنّ هذا المزاج سرعان ما يتحوّل إلى كتلة من الغباء، وعندما يعجز شخص ما عن التواصل مع هذا الغباء. يصبح تعبيره مشبعاً بالعنف. لذلك فإن الألعاب البهلوانية

ساعدتني في اختراق هذا المزاج دون عنف، وما قمت به من ألعاب في الساحات والشوارع كان خير تعبير عن رغبتي في نبذ العنف، ونبذ الأساليب التي تؤدي إليه.

ولعلك تعلم أنّ الحديث عن الفساد في مجتمعنا البائس هذا تلاشى كلياً تحت ركام الخراب، ولأكون واضحاً بصورة أفضل... فإنّ ما أريد قوله هو أنّ المجتمعات القوية الآن ترسم في حركتها خطاً بيانياً صاعداً، وعلى هذا الخط البياني يمكنك أن تميز نقطتين بارزتين. الأولى هي العصبية التي تحدث عنها ابن خلدون، والثانية هي العلمانية بكل تجلياتها ومعانيها الإنسانية.

أما عندنا فلا شيء يمكن ملاحظته سوى نقطة واحدة... نقطة واحدة تعني فيما تعنيه المراوحة في المكان... نعم المراوحة التي لا تتعارض أبدا مع أحكام الاستبداد والفساد، وكما أصبح معروفاً فإنّ خادم المقام أصبح شخصاً مهمّا للغاية. كما صار يكتنز المال وينفق منه على كل من يدعم بقاءه إلى الأبد.

وبالعودة إلى الزيارة التي قمت بها. أقول: إنني عندما وصلت إلى المقام وجدت المشهد جميلاً. فالصبح أبيض كالحليب، والشمس التي بزغت من خلف الجبال البعيدة بدت مثل دائرة صبغها صبي

صغير بطلاء أحمر، وحتى الأفق الذي أحاط بها من كل جانب كان قد أخذ نصيبه من ريشة الرسام الصغير.

حتى الطريق التي سلكتها لم تكن سيئة رغم اختفاء الكثير من معالمها القديمة. فالزمن والمداحل تكفلا على ما يبدو بمحو هذه المعالم. فآثار أقدام المواشي اختفت، وبعض التضاريس الطبيعية اختفت أيضاً. حتى الجسر الحجري القديم اختفى تحت مياه البحيرة.

البقعة التي كانت معروفة باسم **(المحفارة)** أخفاها الإسفلت، وما بقي من تربتها البيضاء كان كافيا للدلالة على وجودها فقط، والمحفارة هذه ذكرتني بخرافة اليهودي والجمل. إذ كنت ورفاقي نسير عليها بشيء من الحذر خوفاً من حقد اليهودي المدفون فيها.

تقول الخرافة: إنّ يهودياً وجملاً دُفنا في تلك المحفارة. مع أنّ الخوف هنا ليس من اليهودي بقدر ما هو من الجمل الذي ابتلعه اليهودي في بطنه.

لكن من أين وصلتنا خرافة اليهودي الذي قد ينفجر حقده في أية لحظة؟ لا بدّ أنها انتقلت من جيل إلى آخر... مع أنّ حقد اليهودي والجمل ليسا خرافة أبداً.

المهم أنني قطعت كامل المسافة سيراً على قدميّ، ووصلت إلى الجبل قبل طلوع الشمس، ورغم الذكريات التي شغلتني بعض الشيء. إلا أنني لم أنس العبارة التي حملتها معي **(إننا ننتظر فعلك)** فقد كنت أردّد هذه العبارة وأنا أفكّر بمن قالها لي... أهو رجل أم كتاب؟ وإذا كان رجلاً؟ فلماذا خصّني بها؟ من جهة أخرى. كنت أردّد هذه العبارة وأنا أفكر بما لم أفعله؟ وما لم أفعله كثير. هذا إذا كنت قد فعلت شيئاً يستحق الذكر.

أما عن سؤالي ماذا فعلت؟ فإنّ مجرد التفكير في الإجابة عن هذا السؤال كان بمثابة الوقوف عند الحدّ الذي يسهل منه الانزلاق إلى أعماق الشعور بالمرارة.

في كل الأحوال كان النهار ما يزال في بدايته، وكان أمامي الكثير من الوقت لأفكر في كل شيء... أما في تلك اللحظات فقد شعرت بغرابة وجودي المفاجئ في مقام الرجل الصالح، وقد سبقت شمس النهار التي ما إن أشرقت حتى صبغت قبة المقام وقمم الأشجار بلون ذهبي جميل.

هذا المشهد كان الوحيد الذي أثار انتباهي عندما وصلت، وحتى عندما تجولت بين الأشجار بحثاً عن مكان مناسب أستريح

فيه. فإنني لم أشاهد بشراً أستأنس بوجودهم. فتشاغلت بالنظر إلى الأشجار التي أحاطت بي، وتأملت بإعجاب مجموعة الأشجار التي برزت من بينها قبة المقام بلونها الأخضر.

فيما بعد تأملت مجموعات أخرى من الأشجار توزعت على محيط الجبل وأطرافه، ثم شاهدت الخادم الذي نذر حياته لخدمة المقام والتمسح بكيانه بغية الحصول على نصيبه من العزّة التي وهبها أبناء تلك الأرض لتراثهم. مثل هذا الأمر كان واضحاً كالبداهة التي لا تحتاج إلى شرح أو تفسير. فقلت محدثاً نفسي:

«المقام يحتاج إلى خادم، مثلما يحتاج المسؤول إلى خادم، ومثلما تعطي الظهيرة علامات القيظ، ويعطي الظلّ إحساساً بالراحة والأمان».

لكن قد لا يكون هذا مهمّاً بالنسبة إلى الخادم القصير، والذي يتميز أيضاً برقبته الغليظة ورأسه المدور. إضافة إلى صدره البارز وبطنه الأكثر بروزاً.

عندما رأيته يراقبني خلسة... تمنيت لو أنّ حبيبتي معي لترى بعينيها كيف هو حال خدّام المعابد الآن؟! ومع يقيني بأنّ لا شيء

على هذه الأرض يبقى على حاله. رفعت يدي محيّياً الخادم. فرفع الخام يده مجيباً على تحيتي. فتساءلت إذا ما كان ينبغي أن أتقرّب منه؟ وهل أذهب إليه ماشياً أم قافزاً؟ وبما أنني لم أقم بهذا الشيء ولا ذاك. رأيته يختفي في الجهة الأخرى من المبنى، ثم رأيت امرأة عرجاء تدخل المقام وفي يدها صحن يتصاعد منه دخان البخور.

الفصل الرابع

كان وجه المرأة دائرياً ومضيئاً كالبدر عندما يتحرك خلف سحابة شفافة. علما أنّ رائحة البخور المشتعل كانت قد انتشرت في المكان، وحتى مناجاة المرأة كانت قد انتشرت أيضا - هذا ما تخيلته - كما تخيلتها وهي تبث شكواها همساً حتى لا يقول لها أحد (إننا ننتظر فعلك) .

أما ذلك الخادم فقد جعلني أكره كل الخدم... البعض يطلقون عليه لقب (القاشوش) وقد رأيته يعطس! ليتني لم أره. لأنه هو من جعلني أفكر في رثاء الرجل الصالح، ثم رحت أشك بحقيقة ما أراه! كأن يصبح المقام مجرد كذبة، والخادم محتال يستحق أن يقيّد بالأصفاد، والمرأة العرجاء مثل العبارة التي حملتها معي... شيء من قبيل الافتراض!!

ولكي أخفف عن نفسي. قلت متسائلاً وأنا أردّدها:

«سواء وصلتني هذه العبارة من رجل أو كتاب. فإنّ الألم الذي سببته لي لا يختلف عن الألم الذي تسببه شوكة تستقر في

راحة القدم... شوكة لا يمكن نزعها دون ألم، ولا يمكن السير بها دون ألم، وكلما سار المرء بها أكثر. ازداد ألمه أكثر ».

وبعد أن فكرت لحظات. أضفت قائلاً:

«لعل الرجل الذي قال هذه العبارة كان يحسّ بتأثير ثقلها على كاهله. فقرر أن يلقيها في أذن أول رجل يصادفه، وهذا ما حدث. الرجل قال عبارته، وأنا رحت أسعى لأجد من يحملها عني».

يبقى أمر آخر لا بد أنك لاحظته... أقصد أنني قد أكون سقيماً بعض الشيء، ومن يراني لا بد أن يتساءل: لماذا أنا جاف مثل نبتة أسقمها العطش؟ لماذا...؟ أليس الماء وافراً؟ والطعام أليس وافراً هو الآخر؟ والطرق، والكهرباء، والمياه مازالت متوفرة رغم الحرب والدمار!! إذن ممّ أشتكي؟ ولماذا لا تنقصني مشاعر الحنق على الآخر حتى ولو سمح لي هذا الآخر باستباحة عقله ومشاعره؟!

مثل هذه الأسئلة وكثير غيرها ما كانت لتبارح عقلي العاجز عن التعامل المناسب مع المسائل التي لا حلّ لها. كأن أرى شخصاً في غير مكانه الصحيح، أو أرى شخصاً كلما اتسع بطنه ازداد إيماناً بنفسه. هذا غير غريزة القطيع، والسلطة الفاجرة، وأولئك الذين لم يجدوا غير مقام الرجل الصالح سبيلاً يداوون به عجزهم.

خلال تلك اللحظات لم أنس أن أمتّع ناظري بوجه تلك المرأة. لأنّ وجهها كان أشبه بالبدر حين ينتقل على ساقين إحداهما عرجاء، وأودّ القول: إنه كان جميلاً وبعيداً رغم أنّ المسافة بيننا كانت مجرد خطوات فقط.

لكن ماذا يعني كل ذلك؟ ربما كنت مضطرباً بعض الشيء، ولأنّ الأمر كذلك فقد ذهبت إلى الخادم لأعرف كيف أكون نافعاً. فلما اقتربت منه. أخذ يسحب أنبوب الماء من أجل سقاية الورود.

في البداية لم ينتبه الخادم لوجودي، وفيما بعد. أي عندما تقدمت للمساعدة. أشار برأسه إلى المرأة التي كانت تتقدم نحونا. ففهمت أنّ الخادم أعدّ الأنبوب من أجل أن تقوم هي بسقاية الورود، وربما كان عليها أن ترشّ الساحة أيضاً.

عندئذ تهيأت لأقوم بقفزة مناسبة. لكنّ المرأة التي افترّ ثغرها العذب عن ابتسامة أشبه ما تكون ببرعم نديّ تفتح فجأة. جعلتني أتوقف... لقد ابتسمت لي، ثم سمعتها تقول:

- أنت؟!

- أنا!؟

- أنت صاحب الألعاب. لا تنكر. لقد رأيتك في ساحة التمثال. ألا تذكر؟

فقلت لنفسي وأنا أتأملها:

« إنّ وجهها جميل جدّا. جدّا»

ثم قلت لها:

- ما كنت أعلم أنّ امرأة مثلك تحبّ الألعاب البهلوانية؟

- هنا لا يمكنك استعراض ألعابك البهلوانية. هل تفهمني؟

فنظرت إلى ساقها العرجاء وأنا أقول لنفسي: «لا تستطيع هذه المرأة تجاوز محنتها عن طريق الألعاب البهلوانية. الألعاب خطرة، وهي لا شأن لها بهذه الألعاب».

مع ذلك استجبت لأمنيتها وعدت إلى ظلّ الشجرات. عدت وأنا أشعر أنني تصرفت مثل متسول أراد أن يقوم بدور ليس محسوباً.

وبغض النظر عن هذا الأمر المخزي نوعاً ما. وجدت ما أتسلى به. فأشعلت سيجارة، وجلست أفكر. إذ كنت أرغب في رؤية الناس يعبّرون عن احترامهم للمقام بطريقة أفضل... خاصة وأنّ احترام الغيب لم يعد ممكناً إلا في هذا الشكل الديني الباهت، وطالما أنّ ما يقوم به الناس من طقوس وعبادات صار يقتصر على هذا الشكل المتوارث فقط. فلِم لا يكون هذا الشكل جميلاً ونظيفاً؟

ثم جاء صياد ليطلب مني سيجارة. رجل في عقده الخامس. أسمر الوجه مع شارب ولحية. أما شعر رأسه فكان مغطى بكوفية، وقد انتعل حذاء خاصاً بالجنود مع سترة عسكرية أيضاً... المهم أنه وبعد أن أشعل السيجارة وضع بندقيته جانباً، ثم جلس مصالباً ساقيه.

- كيف حال الصيد؟

سألته:

- الطيور قليلة... لكن المشي مفيد. المشي هو الأهم، وأنت ماذا تفعل؟
- لا شيء تقريباً. لقد جئت إلى هنا ماشياً، وهذا ما فعلته حتى الآن.

فأوضح الصياد أنّ مقام الرجل الصالح قديم جداً، ولكن هناك من يجدّده دائماً. الملّاك الذي كان يملك هذه المقاطعة قام بتجديد هذا البناء.

فقلت متسائلاً:

- من يدري؟ لعل ذلك الملّاك لم يكن غبياً؟

فعقب الصياد:

- هو كذلك، ولو كان غبيا لما استطاع أن يملك ويحكم. في تلك الأيام كانت هذه الساحات تستقبل التجار والزوار وأصحاب المواهب، وكان الناس الذين ورثوا الفرح والإيمان يظهرون فرحهم وإيمانهم هنا.

عندئذ وافقته دون تردد. فقال الصياد متابعاً:

- تلك الأيام ذهبت، والطيور ذهبت أيضاً، ونحن سنذهب أيضاً. السلام عليكم.

نهض الصياد مودّعاً. فشيعته بابتسامة لا تحمل أي معنى. ربما لأنّ الصياد لم يمكث طويلاً، وربما لأنني وجدت في حديثه نبضاً يستحق التأمل.

أما ما حدث بعد ذلك فقد فوجئت بوصول دفعتين متلاحقتين من الزوار. حيث وصلت الدفعة الأولى في حافلة لا يقل عدد ركابها عن ثلاثين شخصاً. بينهم رجال ونساء، وثلاثة شيوخ، وثلاثة تيوس سمينة كانت تستغيث دون جدوى. أما الدفعة الثانية فوصلت في سيارة أقل حجماً. كل ركابها من النساء باستثناء السائق الذي أشعل سيجارة قبل أن يعود.

الفصل الخامس

عند التاسعة تقريباً تسلل الضجر إلى نفسي. فأخذت أفكّر في صديقي الجديد يوسف، وكم رغبت في رؤيته اعتقاداً مني أنّ يوسف هذا سيكون أكثر فصاحة مني عندما أُضطر للتحدث مع أحد هؤلاء الزوار القادمين من أصقاع هذه الأرض.

على هذا النحو فكرت في صديقي يوسف، وبقيت أفكر به إلى أن رأيته قادماً بهامته المرفوعة وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة تقول: هذا أنا... ألا ترى أنني قادر على صنع المفاجآت؟ ومع أنّ يوسف لم يقل ذلك. إلا أنني تخيّلت ما أريد أن أسمعه، وقلت وأنا فرح بهذا الكنز الذي هبط عليّ فجأة:

- تمنيت أن أراك، ولكن كيف عرفت أنني هنا؟

- أحدهم رآك وهو من أخبرني.

هذا ما قاله يوسف وهو يتلفّت حوله بشيء من القلق، ولأنه كان قلقا بالفعل. قال دون مواربة:

- لا بد أنك تريد أن تتقوّى بوقاحتي؟ فأنا وقح كما تعلم، وأظنّ أنك تعرف رأيي في هؤلاء القوم؟ ابتداء بالخادم، وانتهاء بالزوّار، وبما أنني لست مستعداً في هذا اليوم لمشاجرة أيّ كان. سأحملك على الرحيل من هنا. إنني أكاد أشعر بالاختناق، وأنت... ما حالك!؟ يا أخي يمكننا الذهاب إلى عين الصفصاف... يمكننا الذهاب سيراً على أقدامنا... المكان لا يبعد كثيراً من هنا.

قلت:

- لم أرغب في رؤيتك لتحملني على مغادرة هذا المكان. بل لأتقوّى بوقاحتك كما قلت. المسألة هي هكذا، ومهماً كان رأيك بهذا الخادم المسكون بالقبح. أظنّ أنّ الشعب، أو أي شعب يحترم نفسه لا بد أن يحترم الميثولوجيا الخاصة به.

- وهل هذا الخادم الذي يذبح الأضاحي ويسرق لحمها جزء من الميثولوجيا؟ إنه مسكون بالقبح كما قلت، وهو ليس الخادم الوحيد. قد يكون الثالث أو الرابع. أما الخادم الأول، أو الشيخ كما يسمونه. فهو شخص هام للغاية. يركب سيارة

خاصة، ويستقبله المسؤولون بابتسامة عريضة، وهو من جهته يضخ الكثير من المال في جيوبهم. أمناء ، ومدراء، وقضاة.

- نعم إنّ هذا الخادم البليد هو أحد مفردات الميثولوجيا، وهو من جعلني أفكر بك؟ وها أنت قد أتيت. يا أخي... لقد جئت إلى المقام لأبارك ساحاته ببعض الألعاب، ولك أن تتخيّل شكل هذه الألعاب انطلاقاً من صورة المكان الأكثر قداسة في ذاكرتي. أما عين الصفصاف فنذهب إليها في يوم آخر.

فسألني يوسف بصوت يشوبه الحذر:

- ما الذي تريده؟ وما هذه الألعاب التي تتحدث عنها؟

قلت:

- لا أعرف، ولكن طالما أنني هنا. سأبقى أفكر في هذا الأمر، وفي آخر النهار يمكننا أن نتحدّث في خلاصة ما.

قال يوسف:

- في هذه الحالة ينبغي أن ندبّر شؤوننا... حتماً ينبغي أن نحصل على شراب نتسلّى به، وعندما يحين موعد الغداء لا بد أن نحصل على طعام نأكله.

فأجبته:

- يمكنك أن تفعل ما تراه مناسباً. أما أنا فسأتخيل حروب الآلهة التي أنهكت هذه الأرض.
- حروب الآلهة؟! أم حروب الآلهة الغبية؟!
- لا شك في أننا نعبد آلهة تشبهنا، أو لنقل أننا نعبد صوراً لإله واحد بعدد انتماءاتنا، وبما أننا قبائل وعشائر. أصبح لكل عشيرة أو قبيلة إلهها، أو صورة عنه... أما الحديث عن هذه الحرب التي تحصد رؤوسنا فهو مؤلم جدّاً.
- مع ذلك أنا لا أستطيع البقاء صامتاً، وأظنّ أنك لا تحب صمتي.
- بالعكس سوف نتحدث في أشياء كثيرة، وسأجعلك ترى كم أستطيع الإصغاء إليك؟ إنني أعتبرك الرجل المناسب للتحدّث في هذا اليوم.

عندئذ ابتسم يوسف قبل أن يذهب، وبعد أن غاب بعض الوقت. عاد ومعه زجاجتي كولا باردتين... لم يكن صعباً عليه إحضار هذا المشروب بسبب وفرته. لكنه وبعد أن أحضر المشروب. بدا مرتبكاً لا يعرف كيف يتكلم. فسألته عن سبب صمته؟

هكذا انتبه يوسف إلى سؤالي. فقال وهو يكابد نوعاً من الألم لم يستطع إخفاؤه:

- يبدو أنني لا أستطيع البقاء في هذا المكان.

- لماذا؟

- إن كنت لا تعلم فهناك مشكلة حقاً.

عندئذ كتمت ضحكة أفلتت مني، ثم قلت وأنا أداري ضحكة أخرى:

- أظن أنك لن تجد مكاناً يخلو من هذه المشكلة، وفي كل الأحوال انظرْ إلى نفسك جيداً وسترى أنك جزء منها.

- كنت. أما الآن. فلن تستطيع أن تعيدني إلى زمن ترحمت عليه إلى أن نسيته. مثل هذا الزمن لم يعد موجوداً بالنسبة لي، وإذا أردت أن أركز انتباهي على تلك المرحلة من حياتي. فإنني أستطيع اختصارها ببضع كلمات:

« في تلك الأيام كنت لا أرى أهمّ من مقبرة عائلتنا، وبعد أن عرفت ما أنتجته البشرية من أفكار وحروب، وما حصدته تلك الأفكار والحروب من قتل ودمار. لم أعد ذلك الرجل الذي يشعر بالنقاء.. تصوّر معي كيف يصبح حالك عندما تنفجر قنبلة في

رأسك؟! إنّ هذا ما حدث معي. انفجرت قنبلة في رأسي، ومع ذلك لم أمت. لقد كان الأمر مرعبا، وإلى اليوم لم يتوقف هذا الرعب. من جهتي أطلقت الكثير من القنابل التي لا تقتل، ولو كانت قنابلي من النوع القاتل لما رأيت أحداً من هؤلاء».

- لكنهم لا يصنعون حروباً!؟

بهذه الكلمات حاولت أن أخفف من رفضه لمعنى وجودهم.

- نعم هم لا يصنعون الحروب... لكنهم هم وقودها... يَقتلون ويُقتلون، وقد يُبادون قبل أن يدركوا أنهم أسرفوا كثيراً في تناول الطعام.

لم أعترض على ما قاله يوسف لأنني كنت أفكر مثله، وكنت أقول لنفسي «لقد استطاع يوسف أن يمتص كل الغضب الذي لازمني عندما كنت وحيدا ، ودون أن يدري أسمعني كل ما أرغب في سماعه... فلماذا أجادله؟ ».

هكذا انتصف النهار دون متاعب تذكر. بعض الزوار وبسبب ضيق المكان زحفوا نحونا، ثم تمددوا مع أولادهم وقدورهم. فأخلينا المكان لهم، وعندما عجزنا عن إيجاد مكان نرتاح فيه. قررنا الذهاب إلى عين الصفصاف.

يوسف وجد طريقة ما للحصول على رغيفين من الخبز وبضع قطع من اللحم المسلوق قبل أن نغادر المكان، ولأنني لم أكن جائعاً لم أكترث لهذه المبادرة. لكنه رفض أن يبارك عفتي كما كان مفترضا به أن يفعل. بل أجبرني على تناول قطعة من اللحم، وقطعة من الخبز. أما هو فراح يتسلى بالتهام الباقي ونحن نبتعد.

الفصل السادس

توجهنا نحو عمارة الملّاك البائد، وفي الطريق كان علينا أن نسير أمام بعض المنازل. فشاهَدَنا بعض السكان ونحن نأكل... كما شاهدنا العابرون ونحن نتفقّد المخازن، وبيوت الخدم، والمعصرة القديمة، وغرفة السجن. إضافة إلى أشجار الحديقة المهملة.

أمام غرفة السجن قال يوسف متهكّماً:

- في هذه الغرفة أكل عمي نعمان نصيبه من السياط. لقد سُجن وجُلد، والتهمة كانت عشقه لفتاة من عشيرة أخرى.
- وهل كان عمّك يعرف أنه يقوم بعمل ممنوع؟
- بالطبع كان يعرف. لكنه الحبّ!! وأنت تعلم أنّ هناك دائماً فئة من الرجال تقودهم جرأتهم ومروءتهم إلى مثل هذه الغرفة.
- صراع الأشدّاء.

بقينا نتحدّث ونحن نصعد الدرج. فلما وطئنا سطح العمارة. فاجأنا اتساع المدى. سهول بعيدة انبسطت أمام أعيننا، وقرى

بعيدة شاهدناها فوق قمم الجبال العالية. غير أنّ يوسف الذي كان يأكل، ويتكلم، ويشير بيديه. بدا أكثر عبثية وإمتاعاً.

كل ذلك كان له أثره عليّ، ولم أستطع التحكم بعواطفي. فقد كنت في كل اللحظات أرى حبيبتي أيضاً... كنت أراها وأتخيّلها حيث يقع نظري، وأحياناً أتخيّلها بصحبة شخص ما. شخص قادر على إشباع رغبتها في الحب، والتنزه، واقتناص الفرح والألم في وقت واحد، ولأنّ ما رأيته كان جميلاً وقاسياً... عصفت بي غيرة شديدة. فقفزت وتشقلبت، ثم هبطت الدرج على يدي، وعندما أصبحت على الطريق. أخذت وضعية المروحة، ثم رحت أبتعد.

يوسف الذي فوجئ بقدرتي على الدوران. وقف ينظر إلي كالمشدوه، وعندما رآني أبتعد. لحق بي... في حين كان هناك أولاد يركضون ليلحقوا بي أيضاً... رأيتهم عندما توقفت لأحدّد طريقي، والصحيح أنني توقفت عند شاخصة ومفرق. إذ كان هناك طريقان. واحد ينحرف نحو اليمين، وآخر ينحدر نحو الوادي الأخضر، وكان هناك رجل ما إن اقتربنا منه حتى ألقى تحيته علينا.

كان هذا الرجل متوسط القامة. له مظهر مألوف مع شيء من البلادة يمكن ملاحظتها في وجهه وعينيه. الشيء الوحيد الذي لفت انتباهنا وأثار ريبتنا هو معطفه المنفوخ. إضافة إلى الخنافس التي كانت تزحف على صدره وعنقه ويديه. كل هذا لم يمنعه من سؤالنا عن وجهتنا. فأخبره يوسف أننا نقصد عين الصفصاف.

- وبعد؟

تابع الرجل متسائلاً.

- لن نذهب أبعد من العين، وأنت؟

- أنا لن أذهب إلى أي مكان. سأبقى في مكاني إلى أن يأتي من يشحطني.

- لماذا؟ وإلى أين تريد أن يشحطك هذا الذي سيأتي؟

سألته مستغرباً.

- أنا لا أريد. لكن ما الفائدة؟ الأمر محتوم.

- وما هو المحتوم؟

- المحتوم هو المحتوم.

- وأين أنت من هذا المحتوم؟

- المحتوم في نهاية هذا الطريق ونهاية هذا الطريق.

قال ذلك وهو يشير بيده إلى الطريقين.

فقلت مخاطباً يوسف:

- هناك من ينتظر فعلي، وهذا الرجل ينتظر من يأتي ليشحطه إلى المحتوم، وهذه الخنافس السوداء التي تزحف على عنقه لا بد أنها تشير إلى أمر ما. إنها كريهة الرائحة ولا يمكن جمعها بسهولة. لعل هذا الرجل ساحر أو ما شابه. لولا ذلك...؟!

- دعنا منه. إنه مقزز، ولكن من هذا الذي ينتظر فعلك؟

- كل ما أذكره أنني انتبهت إلى نفسي وأنا أردّد هذه العبارة عند المقام.

- مع ذلك أنت لم تذهب إلى المكان المناسب. إذا كنت تبحث عما يشبع حاجتك إلى الانتماء فقد كان الأولى بك أن تذهب منذ البداية إلى عين الصفصاف.

- وماذا أيضاً؟

- أظنّ أنك تشوّش على مخيلتي.

- كيف؟

- قبل أن نلتقي برجل الخنافس كنت أتخيّل امرأة جميلة تنتظرني في عين الصفصاف.

- لكنّ زوجتك تنتظر عودتك يا يوسف.

- التجاعيد ليست في قلبي، وزوجتي لا يهمّها أن أعود أو لا أعود. لهذا تراني لا أنفكّ أحلم بلقاء هذه المرأة.

- وماذا لو لم تلتق بها أبداً؟

- لن يمنعني **(نقّك)** من التفكير بها، وعندما أجدها سأشرح لها تصوّري عن أفضل علاقة بين الرجل والمرأة، وما أتصوّره عادلاً وإن كان صعب المنال في مجتمعنا البائس هذا.

- حدثني عن هذا العدل الذي تتصوّره.

- نظريتي تكمن في إظهار الحبّ الذي نشعر به، وبالتالي فإنّ أي علاقة بين الرجل والمرأة لا ينبغي أن يترتب عليها أي واجب سوى الحبّ.

لم يفاجئني حنين صديقي إلى امرأة لا تشبه زوجته. بمعنى أنها لن تطلب منه شيئاً بعد أن يلقي في رحمها ومرة واحدة كل آثامه.

غير أنه وعندما استقر بنا المقام في عين الصفصاف. لم يجد يوسف المرأة التي تخيلها، وأنا لم أجد ما يشبع حاجتي إلى الانتماء. قد أكون حصلت على ما يريحني خلال ساعتين من الزمن قضيتها مع يوسف تحت إحدى شجرات الصفصاف. حيث شربنا البيرة وتحدثنا مثل أي رجلين محترمين في شؤون المكان والتاريخ، وأخيراً في شؤون المرأة حيث كان لنا حديث غريب.

يوسف طلب مني أن أتحدث مع مدير أعرفه، كي يقوم هذا المدير بالتحدث مع مدير آخر، والصحيح أنّ هذا الآخر كان مديراً. كل ما فهمته أنّ يوسف كان قد جمع معلومات كافية عن هذا المدير الذي أقيل من منصبه منذ وقت ليس ببعيد. رغم أنه مازال يستخدم سيارة الدولة، وما زال يحمل في خصره مسدس الدولة. إضافة إلى أنه يطارد زوجة يوسف ويهدّدها بالفضائح إن لم تلتق به!

وقال يوسف:

- تصوّر أنّ هذا التافه يتصلّ بي ليراني. في كل يوم يحاول الاتصال بي. لكنني أرفض التحدّث إليه، وأرفض رؤيته

أيضاً. ما يريده منا معروف. لهذا تجدني حائراً لا أعرف ماذا أفعل؟

فقلت:

- قد أستطيع مساعدتك في هذا الأمر؟ وإلى أن يقتنع هذا السافل بأنه ابن سافل، وبأنه لن يستطيع أن يعيد الأيام ليصبح مديراً، ولن يعيد الزمن ليصبح مراهقا، وإلى أن يقتنع بعجزه وغبائه. أنصحك بالصبر.

بهذا القول انتهى حديثنا قبل أن نفترق.

الفصل السابع

عندما عدت إلى المنزل. ألقيت التحية على أمي المستلقية في فراشها، ثم ذهبت إلى غرفة نومي، وهناك رأيت وجهي في المرآة المعلّقة على الحائط صارماً شديد القسوة، وكما لو كان وجهي ينتظر عودتي ليوبخني على طريقته. رأيته يغضّ الطرف غاضباً. فألقيت بنفسي على السرير غير آبه به.

بعد ذلك نمت نحو ساعة من الزمن. استيقظت بعدها لأستقبل عبد الله، وأنت تعرفه، وتعرف لقبه (الفوّاشة). لا شك أنّ اللعّان هو من أطلق عليه هذا اللقب. أنا أجزم بذلك.

أياً يكن الشخص. فاللقب هو المهمّ... لأنّ عبد الله عائم دائماً كالفوّاشة، وهو يتمحور حول نفسه بعدّه شخصاً مهمّاً للغاية. لقد بلغ الثمانين ومازال يعتقد أنّ أمامه الكثير من الوقت ليصبح راشداً، وما دامت الشمس تشرق في كل صباح فلا بدّ أن يغادر منزله للقيام بعمل ما. مع أنه غالباً ما يعود إلى منزله دون أن ينجز شيئاً. حتى لو قال: رحت، وقابلت، وفعلت. فإنّ هذه الكلمات

ترد في حديثه المتقطع دون أن يكون لها أي مغزى، وحديثه مثل الحلم المركّب. حادثة من هنا، وحادثة من هناك. لا يجمعها رابط، ولا يربطها زمان أو مكان.

أما الشيء الأكثر غرابة في شخصيته. فهو تعلقه بالشِعر. أقصد كتابة الشعر. هذا غير المقالات الدينية التي قد تكون أكثر رداءة من شعره. غير أنه ومنذ زمن بعيد لم يعد يحدثني عن مقالاته أو ماذا يكتب.

لعل حياته انتظمت وتواءمت مع الفشل، ولولا عناده، وإعجابه بنفسه لانطوى أو مات. لكنه عنيد كثير الحركة، وما جاء اليوم لزيارتي إلا ليعرض علي كفاحه ونضاله في مواجهة الخصوم من أمثاله.

بعد أن تفحّص عبد الله لوحة الحصاد المعلّقة على الجدار المقابل له. أبدى إعجابه بقدرة الرسّام على التقاط اللون الحامي في شهر حزيران، وقال معبّراً عن إعجابه:

- حقا إنه لون الحصاد، وهذا اللون الحار يمكن مشاهدته في النار المشتعلة. يا له من رسّام! لقد أثار شجوني.

في الماضي عندما كنا نذهب إلى الحصاد كان هذا اللون يزيّن وجوهنا وسواعدنا، وكنا نتعاون. أمّك تعرف ذلك جيدا. كيف هي؟ أظن أنها تتفوق علينا نحن الرجال في أمور كثيرة. لكن لماذا أمدحها أمامك؟ هذا لا يليق. كنت أحدثك عن الماضي. في تلك الأيام كانت بيوتنا متلاصقة كأنها بيت واحد، وأذكر أنني سمعت ذات يوم صراخ أبي حسيب. فخرجت، ورأيت بعض الأولاد الذين سبقوني. أما زوجته فكانت مذعورة خائفة. فقد كان الشيخ يهدّد ويتوعد، وبعد أن عرفتُ القصة - حيث ادعى أنه سمع طرقاً على باب غرفته - أنّبته ووبخته.

هل تذكر تلك القصّة يا حضرة الثور؟ لقد أخبرني عبد الله أنك كنت مستتراً في عتمة الليل، وأردت أن تتأكد من نوم أبيك حتى يتاح لك الاجتماع بخديجة. لا تحاول أن تستهجن صراحتي. لأنني لست المسؤول عما قاله عنك، وأظنّ أنك لا تخشاه؟ سأكمل.

لقد توقف عبد الله عن سرد روايته ليأخذ جرعة من الماء. أما أنا فقد ذهبت إلى المطبخ لأعدّ الشاي. ربما لم أجد طريقة

أفضل من الهرب للتخلص من قصّة سمعت بها أكثر من مرة. هذا مع العلم أنّ عبد الله يستطيع أن يقدّم حديثاً متوازناً فقط عندما يتناول سيرة والدك.

وبغض النظر عن رأيي به. فإنّ ما يحدث لي عندما يجالسني شخص ضعيف في كل شيء إلا من إيمانه واعتباره لنفسه. عندئذ قد تفتك الحيرة بي من حيث لا أحتسب، ونظرتي إلى الكون الذي يحتضننا لا بد أن تضطرب بشكل ما. شكل من أشكال الخراب الكبير أشعر بحتمية وقوعه، وأخاف...

ما كنت متأكّدا منه في تلك اللحظات هو أنني كنت منقبض الوجه. فلما رآني عبد الله في تلك الحالة. أخذ يحدثني عن المصادفات الجميلة التي خصّه الله بها، وقال: إنّ الله شمله برعايته مرات كثيرة، واستفاض في الحديث عن إحدى هذه المصادفات.

المهم أنه تخلى عن سيرة والدك ليؤكّد لي أنّ التواصل بيننا ما زال ممكنا، وأنه يجد ما يفخر به. ليس أمامي فقط، ولكن أمام نفسه أيضاً، ومع أنه قال ما يكفي لأدوخ. إلا أنني بقيت صامداً أفكر فيما إذا كان بالإمكان تتويج عبد الله ملكاً على

عرش الفوضى... نعم الفوضى البدائية التي لم يبق منها إلا القليل... ما يكفي لنتذكرها فقط. حيث لا يجب أن يموت شيء بحسب قوانين هذا الكون، وإذا كان مقدّراً لي تحمّل وجود شخص مثل عبد الله. فقد كنت أفعل ذلك احتراماً لهذه القوانين، وحتى لا أرتكب حماقة لا أعرف عاقبتها.

المهم أنّ عبد الله رحل أخيراً، والعاقبة التي خشيت منها كانت بانتظاري. فقد اختفت ولاعتي الوحيدة حالاً، وفي الصباح الباكر أيقظتني أمي لتخبرني بموت العجوز أم محمد.

أيقظتني كي لا أتخلف عن واجبي في التشييع والتعزية. علماً أنه ومنذ تلك اللحظة - مرورا بأيام التعزية - وجدت الفرصة مواتية كي أقوم بواجبي في مجالسة أهل الحي، وأنت تعلم يا عزيزي أنّ السبيل الوحيد للاجتماع بالآخرين اقتصر على هذه المناسبات رغم كثرتها منذ اندلاع هذه الحرب القذرة التي نشهد فصولها.

أظنّ أنّ الجميع على درجة واحدة من إدراك هذا الأمر، وبالتالي فإنّ ديوك الحظيرة ودجاجاتها قد لا تكون قادرة على

إحداث ضجة مثيرة للأعصاب كما يفعل المعزّون. مع أنّ كل ما قيل في تلك المناسبة كان ملائماً على نحو ما. خاصة ما يتعلّق بيقين أم محمد، ولا شك أن زوجها أبو محمد خسر بفقدانها واحدة ممن آمنّ به ذلك الإيمان الأعمى والذي قد لا يتكرر دائماً. مع ذلك لم ألاحظ أبداً ما يشير إلى حزنه واستيائه.

الفصل الثامن

هكذا انقضت أيام التعزية، ومع انقضائها وجدت الفرصة مواتية لزيارة صديقي المدير. فاستيقظت باكراً، وفي التاسعة تقريباً كنت أعبر ساحة البائعين الصغار. حيث حملتني قدماي إلى تلك الساحة لأغوص في القاع الذي يناسب مزاجي تماماً. علماً أنّ هؤلاء الأطفال تسللوا إلى الساحة كما يتسلل المطر عبر المسالك والشقوق الضيقة.

أما البداية فكانت مع عدد من الأطفال عرضوا بضائعهم على مفارش من القماش، وعندما علم بهم أصحاب الدخل المحدود ازداد الطلب على بضائعهم الرخيصة... فازداد عدد هؤلاء البائعين.

كل هذا تم في غفلة عن أبصار ومسامع التجار الذين يدفعون الضرائب، وعندما تناقصت مبيعات هؤلاء التجار. أعلموا أصحاب القرار بما يحدث. فقام هؤلاء بإرسال الشرطة لمطاردة البائعين.

غير أنّ عناصر الشرطة يعرفون كيف ينجزون أعمالهم. ما يعني أنّ تلك الساحة أصبحت معبراً لكل المخالفات. الجميع يتبادلون المنفعة بعيداً عن سيرة شايلوك الذي بقي وفيّاً لمبادئه. إذ أنّ شكسبير العظيم وبعد تلك المئات من السنين بات أكثر قدرة على السخرية الصامتة. شأنه شأن كل الرجال المحترمين. لأنّ من كتب لهم وأوضح لهم طبيعة اليهودي شايلوك. نسوا حقد هذا التاجر اللئيم أو غفروا له، وحتى حكام العرب الذين لطشوا أموال شعوبهم. رحلوا بها ليضعوها في خزائنه الجديدة. ذلك أنّ خزائن شايلوك أصبحت محصّنة. محميّة بشرائع الدول، وليس بشرع الله الذي بقي لنا وحدنا، وكما تعلم فإنّ شرع الله مازال قابلاً للجدل وللمواجهات الدامية أيضاً. فأين كل ذلك من صبي تحوّل نداؤه بفعل التكرار إلى ترنيمة مؤثرة؟

لقد رأيته وهو ينادي ليبيع بضاعته المعروضة على الرصيف، ومع تكرار النداء كان الناس يقتربون منه لينتشوا بندائه المسكر، وإذا ما اشترى أحدهم شيئاً. تنحى جانباً. فتقدمت كالآخرين لأرى الأشياء المعروضة على الرصيف. لقد تقدمت بهدوء، ودرت حول الصبي الذي كان ينادي وينادي، ثم قلت لنفسي:

« أي قطعة تساوي نداءه المسكر هذا»

إلا أنني لم أكن مضطرا لشراء شيء لا أحتاجه. فاعتقدت أنني صليت وباركت، ثم خرجت من المعبد منشرح الصدر وصوت الصبي يودعني.

قبل أن أغادر الساحة جاءني صبي ليمسح حذائي. فرفضت. قلت له: لا أريد... لكنّ الصبي تمسّك بحذائي، فأعطيته قطعة نقدية مناسبة، ثم طلبت منه أن ينصرف عني. فتركني مؤقتاً... لأنه ما لبث أن عاد ليتمسّك بحذائي من جديد. فقفزت مغادراً ذلك المكان.

إنّ ما جعلني أشعر بالأسف هو أنّ هؤلاء الصغار الذين يتحملون الحرّ وشظف العيش من أجل حفنة صغيرة من النقود لم يعلمهم أحد شيئاً عن كرامة الأطفال، وأظن أنّ قسوة الحياة سوف تعلمهم ما لا يعرفه الكبار.

غير أني عرفت كيف أصل إلى البناية التي أقصدها، وهناك حيث كان الازدحام شديداً. توقفت بضع لحظات أمام تلك البناية كي ألتقط أنفاسي. بعدها صعدت درجاً رخامياً قديماً، ولم أتوقف إلا في بهو الطابق الرابع حيث دخلت عبر باب خشبي

مفتوح على مصراعيه، ثم توقفت في البهو المطل على الغرف لأستطلع المكان.

وحيث كان الجو رطباً ومعتماً. فقد بدا لي كل شيء في المكان يتآكل. الطلاء، والجدران، والأثاث، وحتى الموظفين الذين لم يجلسوا خلف مكاتبهم. فقط كانت هناك امرأة واحدة تعمل، وهي التي استقبلتني وقادتني إلى غرفة المدير.

هكذا دخلت، والمدير الذي كان موجوداً استقبلني مرحباً، ثم عرّفني إلى ثلاثة أشخاص كانوا في مكتبه. الأول مسؤول أمني معتبر، والثاني كاتب لعله مصاب بمرض العصاب، والثالث طبيب اتصلت به معاونته قبل أن أتشرف بمصافحته. فكلمها الطبيب وغادر المكتب مستأذناً. أما المسؤول والكاتب فغادرا بعده بدقائق فقط.

هنا يمكن القول أنّ المدير كان قد قرّر منذ البداية وحتى لو لم يخرج المسؤول والكاتب والطبيب ألا يدخلني في لعبة العلاقات التي أتقنها جيداً. لأنه ومنذ أن نظر في عيني انتفض كالخائف - لأنني كما قلت سابقاً... سقيم وجاف مثل نبتة أسقمها العطش، والمدير الريان لم يجد في هذا السقم ما يريحه. من جهة أخرى كان

المدير متمكناً من الإفراط في دلال نفسه انطلاقاً من السياق العام للعبة العلاقات المتقنة بحدود الذكاء الذي اكتسبه لاستخدامه ليس خلال العمل فقط، ولكن خلال العمل وبعده أيضاً.

« قد يكون هذا بديهياً»

هذا ما فكرت به قبل أن أتذكر أنني أطلقت مثل هذا القول في وقت سابق. فلمت نفسي لشغفي بالتقاط البديهيات والاهتمام بها.

«لكن ما الفائدة؟»

هذا ما قلته لنفسي عندما تذكرت أنّ أفكاري تقودني دائماً إلى حيث لا أريد، ودائماً أورّط نفسي حيث لا يستطيع أحد أن يساعدني.

لقد جئت إلى هذا المدير لأحدثه بشأن المدير الآخر، وعندما أتيح لي أن أبدأ الحديث معه. اكفهرّ وجهي قبل أن أقول كلمة واحدة، وحتى عندما نطقت باسم المدير إياه. فعلت ذلك بازدراء شديد.

عندئذ نظر إلي المدير بدهشة مريبة، ثم رنّ الهاتف ليمنع الحديث بيننا. بعد ذلك رنّ هاتف آخر. فشربت قهوتي على أنغام أجراس الهواتف، وسمعت رغماً عني عبارات الترحيب. إضافة إلى كلمات

العتاب الرقيقة التي أطلقها صديقي عبر سماعات الهواتف المتراصفة على مساحة من المكتب.

حدث كل هذا والمدير لا ينفكّ يرمقني بين وقت وآخر بنظرة عابرة، ثم ازداد الموقف صعوبة عندما دخل رجل مميّز، وطبعاً لم أعرفه. حتى المدير نسي أن يعرّفني به. مع أنه لم ينس كيف يستقبله بذات اللعبة المضبوطة الإيقاع مع إضافة تناسب أهمية الرجل.

خلال ذلك الوقت وقبل أن أصبح شخصاً منسياً تماماً. قال المدير ما معناه. «إنّ علاقته بالآخرين تحكمها حدود في غاية الدقة قال ذلك وعاد إلى ضيفه من جديد. فانصرفت بناظري لأرى في الجهة المقابلة وعلى مساحة من الحائط مكتبة بأربعة أدراج. اصطفت عليها الكتب باتساق جميل، وحتى الكتب بدت جيدة على كل حال... عناوينها معروفة وأغلفتها متقنة الصنع... غير أنها كانت مثلي صامتة منسية. لقد راودني هذا الشعور لحظات فقط. قررت بعدها الانسحاب بهدوء.

الفصل التاسع

كان نداء الصبي ما يزال يتردّد في سمعي... فلما عدت إلى الساحة وجدت مكانه خالياً. كأنه غادر الساحة منذ لحظات. فانشغلت بالإصغاء إلى بقية الأصوات، وهنا لم أكن أصغي إلى الأطفال بحيادية كما تعودت أن أفعل مع الكبار... إذ إنّ حيويتهم التي حُرمت منها الملاعب والمدارس كانت تشرئب في ذلك النهار لتذكرني بفوضى القوة وسوء التدبير.

لقد حولوا تلك الساحة إلى مسرح، وها هو رجل يسير أمامي بمعطفه المنفوخ مثل كيس... كان يسير كالهائم على وجهه، وقد يتوقف بين الحين والآخر ليركز انتباهه على أمر ما؟ لعله كان مذهولاً من كثرة الأصوات. حيث كان هناك من ينادي بأعلى صوته:

جوارب... جوارب.

سكاكين.

قداحات... قداحات.

ساعات.

شحاطات.

جرّب حظك... ورق يانصيب.

سجاير... سجاير.

وعلى إيقاع هذه الأصوات كان صاحب المعطف يرفع حاجبيه ويفتح فمه. فلاحظت أنّ وجهه ليس غريباً. بل سرعان ما تذكرت وجه ذلك الرجل الذي رأيته عند الشاخصة منتظراً من يشحطه إلى المحتوم. لكن قبل أن أتأكد. شاهدت رجلين توقفا أمامه فجأة. واحد أطول وأكثر بدانة من الآخر، وهذا البدين الذي تقدّم على رفيقه راح يتهم صاحب المعطف بشيء ما؟ فتقدمت لكي أتبين حقيقة ما يجري، وعندئذ فقط تأكدت من هوية الرجل. فقد كان الشخص ذاته الذي رأيته عند الشاخصة منتظرا من يشحطه إلى المحتوم، وحتى معطفه المنفوخ مازال منفوخاً وبالياً.

وفي حين بقيت قريباً منه. شاهدت الرجل البدين يمد يده خلسة إلى المعطف. فإذا بصاحب المعطف ينتفض ويتراجع خطوة إلى الوراء، ثم قال وهو يستعيد صوته فجأة:

- ما الذي تريده أيها السيّد؟ ومن تكون لتمد يدك إليّ؟

عندئذ قال البدين:

- إذا لم تكن سارقاً دعنا نرى ما تخبئه في معطفك؟

فصرخ صاحب المعطف بصوت لا تنقصه الجرأة:

- ومن تكون حتى أمتثل لما تطلبه مني أيها السيّد!؟ آه... قل لي من تكون!؟

قال ذلك والتفت نحوي، ثم تابع عندما رآني صامتاً:

- تصوّر.. إنّ هذا السيّد يتهمني بالسرقة... ليته يعرف من أكون؟!

لكنّ البدين أصرّ على طلبه، وبطريقة لا تخلو من الإلحاح طلب من صاحب المعطف أن يظلّ هادئاً. أما القصير النحيف فقد دار حوله كالساحر، ثم قال وهو يفتح شدقيه:

- تعال معنا.

- وإذا لم آت ماذا ستفعل؟

بهذا القول الذي لا ينقصه الاستهجان ردّ صاحب المعطف على الرجل النحيف. فقال البدين:

- لا نريد بك سوءاً. فقط نريد أن نرى ماذا تخبئ في معطفك؟

هنا ظهرت على وجه صاحب المعطف بعض علامات الذهول، وبريق عينيه غار بعيداً... لعلّه لم يعرف كيف يرد على إلحاح هذين الرجلين؟ فوقف أمامهما كالحالم يحاصره الوهم والكابوس... غير أنّ ذهوله لم يدم أكثر من لحظات، وبريق عينيه عاد إلى الظهور ثانية... لقد عاد بريق عينيه بسرعة عجيبة، وحيث كنت أراقبه عن كثب. رأيته يفتح معطفه، ثم رأيت الكثير من الجرذان تقفز من داخل معطفه لتبحث عن أمكنة ضيقة تستطيع الاختباء فيها.

كل ذلك حدث في طرفة عين... الجرذان تقافزت، والأشخاص الذين تجمعوا حوله هرعوا تسبقهم صيحاتهم النافرة... جرذان... جرذان... جرذان!

أما البدين ورفيقه القصير فلم يظهر عليهما أي شعور بالخوف أو الندم. فقط غادرا المكان وهما يتهامسان بهدوء.

يبقى أنّ صاحب المعطف لم يكن ساحراً، ولو كان ساحراً لما غادر الساحة مخلفاً وراءه الجرذان التي حملها في معطفه.

« لكن لماذا يحملها؟»

هذا السؤال دفعني إلى اللحاق به. فلما اقتربت منه. سبقني صاحب المعطف إلى القول:

- إنّ ذلك الغبي يتهمني بالسرقة... تصور...

- لكن ما قصّة هذه الجرذان؟ لماذا تحملها؟ ولماذا تركتها؟

ابتسم الرجل وقال:

- أحملها لكي تدغدغني، وتركتها لأنها لا تفعل ذلك... تصوّر؟!

- تحملها لتدغدغك!؟ هل هذا معقول!؟

فاكتسى وجهه تعبيراً صارماً، ثم قال وهو ينظر إلي متجاهلاً معرفته بي:

- هذا يعني أنك لا تصدقني... قل بصراحة؟

فقلت:

- لم أقصد. ولكن؟

عندئذ شعرت بيد تمسك بي. فاستدرت رافعاً قبضتي لاعتقادي أنني سأشاهد أحد الرجلين أو كلاهما معاً (الطويل والقصير)

وإذ كنت أكره أن يقتربا مني. شعرت بغضب شديد. لكني لم أشاهد أياً منهما. فقط كان هناك عجوز في الستين من عمره. أراد أن يسرّ لي بأمر ما. فتوقفت

وأصغيت، وفي الحال سارع العجوز إلى القول:

- تبدو غريباً أيها الأخ... أما هو فالجميع يعرفونه هنا... يعرفونه من أيام تجارته القذرة. لكنه خسر كل شيء. خسر ماله وعقله، والآن هو لا يعرف ماذا يفعل؟ إنه شبه معتوه... يا أخي. أنا أقول ذلك كي تتركه وشأنه.

فسألت العجوز عن الجرذان لأنني كنت أريد جواباً، واعتقدت أنّ هذا العجوز قد يعرف شيئاً. لكنه وبدل أن يجيبني أو يعتذر عن الإجابة. تقلّص وجهه بطريقة تنم عن سخطه واستيائه من سؤالي، وهكذا فقد أوقعني العجوز في حيرة جديدة.

الفصل العاشر

بعد أن تركني العجوز. توجهت إلى أقرب موقف، وهناك في السيارة التي ركبتها. شاهدت حامداً، أو (الجينكس) كما كنا نسميه. لقد ذكرت أسمه ولقبه احتراماً لخلطة الطين الرخوة التي خلقه الله منها. نعم هي خلطة خاصة جداً. لولا ذلك لعرِف هذا الكائن أنّ شيئاً ما تغيّر في بلدنا، وأنّ مئات آلاف الضحايا رقم يكفي ليغيّر قناعته بجدوى كتابة التقارير.

أظنّ أنك فعلت الشيء نفسه في وقت ما؟ لكن هل تعلم أنّ حامداً كان معي في المدرسة الابتدائية؟ في تلك الأيام كان معروفاً بلقبه الذي اشتهر به (الجينكس) وفيما بعد... أي عندما تغيّرت الأوضاع والأسماء. أصبح هذا اللقب جزءاً من التراث، وحامد الاسم نهض من قلب المحنة تسبقه أحلام واعدة.

وكان في السيارة أبو عدنان مدرس الفلسفة. هكذا أصبح اسمه منذ أن أنجب ولده الأول. حتى الفلسفة تخلى عنها لمصلحة الأفكار والمعتقدات التي راجت في عصر الانحطاط.

ورأيت حليمة زوجة إبراهيم الذي أقعدته الحرب في لبنان منذ العام ١٩٨٢، والمدرس التاجر خضر، وكامل العبد وزوجته سامية. أظن أنهما موظفان نمطيان بمعنى من المعاني، وهما يستطيعان أن يدسّا أنفيهما في أي أمر فقط لكي يثرثرا به عند الحاجة.

كل من ركبوا السيارة كانوا موظفين باستثناء حليمة التي لا يحتاج وضعها إلى الكثير من الشرح باعتبار أنّ زوجها مقعد ومريض.

عندما انطلقت السيارة. رفع كامل صوته ليبقى مسموعاً. في حين ظلّ حامد يتحدث بصوته الرخو المقيت. أما سامية فكانت تشرح لخضر الصعوبات التي تواجهها المرأة العاملة، وبخاصة عندما تكون جادة ونظيفة، وهنا لا يصعب على المرء أن يفهم قصدها؟

في كل الأحوال لم يكن قصدها مهمّاً مقارنة بالمشهد الذي كانت جزءاً منه. فقد كانت تشكل مع زوجها ثنائياً مسليّاً، وكانا قادرين على أداء تمثيلية نصف مبتذلة، وتوزيع الأدوار بينهما لم يكن صعباً. فبينما هي تأسر خضرا برشاقة لسانها. كان زوجها يهمهم بصورة مضطردة، وقد يرمقها بنظراته أحياناً

ليؤكد لها وللجميع أنه الأفضل، وبالتالي لا يجد نفسه مضطراً لكبح غريزة لسانه.

أبو عدنان الذي يدرّس الفلسفة ويحفظ أجزاء كاملة من القرآن. كان يتلعثم كلما حاول الرد على حامد... لعلّه ما كان يستطيع الرد قبل أن تخفّ همهمة كامل. لهذا كان يتململ مترقباً الوقت المناسب، وها هو الوقت المناسب ينبسط فجأة أمام لسانه. فيردّ على حديث حامد الذي تناول منافع الحرب القائمة على الحزب والحزبيين. لأنها وبحسب زعمه ستنظف الحزب من الانتهازيين الخونة:

- تدبير الله فوق كل تدبير، وما سيحدث في المستقبل لا يعلم به إلا الله.

عندئذ أكّد حامد أنّ الله لا شأن له بما تقترفه أيدينا من أخطاء، وتابع بصوته الرخو قائلاً:

- الخونة لا مكان لهم بيننا، والله لا يحبهم. فكيف تفترض أنّ المستقبل ليس معلوما؟ أظنّ أن لسانك ذهب في اتجاه معاكس لقصدك.

فأجابه أبو عدنان بصوت لا يقوى على المتابعة:

- لا تنس أنك تتحدث عن الله صاحب الإرادة الكليّة والمعرفة الكليّة، ثم تابع بصوت يتهدج من الإحساس بالخيبة:

- على كل حال إنّ هذا البحث ليس مكانه هنا.

آنذاك علت همهمة كامل وهو ينظر خلسة إلى زوجته التي كانت تحدّث خضرا في أمر ما، وكانا منسجمين بحيث لم ينتبها إلى ما جرى من أحاديث وتعليقات.

المهمّ أنّ الجميع تكلموا بما فيه الكفاية. ما عدا حليمة التي ظلت صامتة طوال الوقت. كل هذا حدث قبل صعود عبد الله. فقد صعد إلى السيارة عن الطريق، ولأنه يحبني كما قال. جلس بجانبي، وما كاد يستقرّ في المقعد حتى قال يحدثني:

- كنت في بيت العقيد... لا... إنه مقدّم... عميد... لا أدري؟ وحملت في جيبي عددا من علب البسكويت. أعطيتها لأولاده... أنت تعلم كيف تجري الأمور...؟

فلما حاولت توجيه لسانه. قال يسألني:

- هل تعلم كيف تزوج أبو حسيب؟

فسألته وأنا أضحك:

- وهل لهذا الرجل طريقة خاصة بالزواج؟

قال:

- لا أقصد ذلك. لكنه خطف زوجته بالقوة رغم أنها كانت تحب شخصاً آخر. لكن ما قيمة ذلك الآن؟ أظنّ أنّ هذه الفضيحة طواها الزمن، وهو أصبح شيخاً له قيمته واحترامه.

« قلت لك سابقا يا فخامة الثور إنّ عبد الله يستطيع أن يقدّم حديثا متوازناً فقط عندما يتناول سيرة والدك الشيخ، وعلى هذا الصعيد يستطيع أن يقدّم الكثير من التفاصيل. المؤرخ وحده يفعل ذلك» بعد أن أطلعني على قصة زواج والدك. حاول أن يقفز إلى موضوع آخر. فتدحرج صوته وهو يتابع:

- عندما كان الحزبيون يقيمون المهرجانات. كنت ألقي قصائدي أمام الجميع، وطبعا كانوا يضعون أمامي طاولة من خشب الزان. في تلك الأيام دفع الشيخ أنيس ابنه العجل لركوب الموجة، ولكي يصبح لهذا العجل شأن في المستقبل أُوْلِمَ الشيخ الكثير من الولائم.

عندئذ قاطعته لاعتقادي أنني أعرفك أكثر منه، وأظنّ أنني أعرف كل نجاحاتك وخيباتك، وأعرف سيرتك ابتداء من

تلك الأحداث التي أوصلت البعض إلى مقاعد المسؤولية بسرعة لا بأس بها. آنذاك كان هناك الكثير من الطامحين إلى ركوب القافلة، وهذا ما حتّم على القيادة النظر في هذا الأمر. فعملوا على تخفيف سرعة القافلة. السلامة العامة كانت تقضي بذلك، والحكمة تقضي بتخفيض السرعة أيضاً. لكنّ تسارع المقطورات الخلفية أعاق توقف القافلة. فحدثت بعض الفوضى. إذ تحطمت عربة من الأمام، وانفصلت عربة من الخلف، وانحرفت عربة من الوسط.

حدث كل هذا حتى لا تخرج القافلة عن مسارها. أما أنت فقد خرجت في وقت آخر. ذات يوم وعندما بلغت موقعاً تحسد عليه. جاء من يدفع بك إلى الخارج. فخرجت من القافلة إلى الأبد.

الفصل الحادي عشر

عندما غادرت السيارة. أسرعت الخطا كي لا يلحق بي عبد الله. إذ كان نهاري حافلاً، ويوسف قد يزورني في أيّ وقت، وهكذا فقد تناولت طعامي كيفما اتفق ، ثم استلقيت لأستريح.

لكنّ يوسف لم يأت قبل حلول المساء، وقد تأخر إلى هذا الوقت ليسهر معي، ولأنّ السهرة كما قال يلزمها طعام وشراب. أحضر معه كيلو بطاطا وزجاجة عرق، وقال وهو يضع هذه الأشياء: إنه يحبّ البطاطا المقلية ، ويحبّ أن يشرب معها كأساً أو كأسين من العرق. فأكدت له أنّ في منزلي الكثير من البطاطا، وعندي عرق أيضاً.

فقال وهو يضحك:

- ما أدراني أنك تحبّ البطاطا أنت أيضاً؟ لو كنت أعلم ما حملتها معي.

قال ذلك ثم جلس بانتظار الأخبار التي جاء من أجلها. فحدثته عن زيارتي إلى ساحة البائعين الصغار، وذكّرته بالرجل

الذي شاهدناه معاً عند الشاخصة منتظراً من يشحطه إلى المحتوم، ثم حدثته عن الصبي الذي أسكرني بندائه المتعالي كالآذان، وعندما أتيت على ذكر الجرذان والوقحين اللذين عاكسا ذلك الأبله المسكين... فاجأنا العجوز أبو محمد بزيارة طارئة.

صوته سبقه إلينا، وبعد السلام رفض الجلوس. كما أعرب وهو يتجول في الغرفة عن سخطه من الوحدة التي يعيشها. بعد ذلك ودون أي شعور بالحرج طفق يبكي.

هكذا أثارنا العجوز بدموعه، ويوسف نظر إليّ مستغرباً، ثم سألني عن سبب بكائه؟ فأجابه العجوز:

- أبكي أم محمد.

فقال يوسف محتجاً:

- لقد ترمّلت منذ أيام فقط، والآن تشكو... يا لك من عجوز تحبّ النساء.

- نعم أنا أحبّ النساء، وأنت؟! ماذا عنك أنت؟

- أنا متزوّج، وامرأتي لم تمت بعد.

عندئذ استدار العجوز وخطا مبتعداً. فاكتفينا بمراقبته. لكنّ العجوز ما لبث أن عاد بعد دقيقة واحدة... عاد ليحدثنا هذه المرة عن أبنائه وكيف أنهم لا يهتمون به.

فقلت له:

- أنجبت قبيلة يا أبا محمد، وها أنت الآن تشكو مثل غريب.

- أنجبت قبيلة من الغجر.

وبعد أن صمت لحظات. أخذ يشتم أبناءه واحداً بعد الآخر. لقد لعنهم وألصق بهم أبشع الصفات. إلا حليمة التي لم يأت على ذكرها أبدا. بعد ذلك قال يسألني:

- ماذا عنك أنت؟ وهل تنوي أن تكمل حياتك مثل... ؟

- مثل من؟ وهل هو مثل أبنائك أم أفضل حالاً؟

- إنه مثلهم، ولكن ما شأننا به؟ لو رافقتني إلى المقام لعرّفتك بمسؤول لامع. إنه لامع في الشعر أو في الصحافة لست أدري؟ هكذا وصفوه. حتى أنه جلس بجانبي. يا له من أكول! لم أر في حياتي سميناً مثله! لا بد أنّ خادم المقام يعرفه حتى دعاه. لماذا لا تتعرف إليه؟ إذ يمكنك أن تستفيد من هذا الرجل.

- لا أحبّ المسؤولين.

- كيف؟ كنت أعتقد أنني سأتفضل عليك عندما أقدّمك إلى هذا الرجل؟!

- تفضل وقل ماذا فعلتم عند المقام؟

فقال يوسف متهكّماً:

- في كل عام يقيم الخادم الشيخ وليمة تكلف آلافاً مؤلفة.

- وهل حصل المسؤول السمين اللامع على نصيبه؟

همهم العجوز وقال:

- لِم جاء إذا؟ لقد شاهدته وهو يأكل لسان العجل، وأنت تعرف ماذا يفعل العجل بلسانه؟ قلت له هذا حتى يتركه لي. فهل تعرف بماذا أجابني؟ قال إنه لم يجد في حياته أشهى من ألسنة العجول.

- كنت أعتقد أنك لا تقدر على هضم هذا الطعام؟

- أنا لا أقدر...؟ لقد دلوني على امرأة مناسبة.

تجاهلت حديثه عن المرأة وقلت:

- لم يحدثني عبد الله عن هذه الوليمة.

- هو فقط يحدثك عن الشيخ؟

- ماذا تقصد؟

- لا أقصد شيئاً، ولكن ماذا أقول؟ لقد ضيعتني. أولادي رفضوا الذهاب معي لرؤية المرأة. فقلت لنفسي لن أجد أفضل منك. على الأقل أنت عازب مثلي.

- لا أستطيع أن أخدمك في هذا الأمر.

- وبماذا تستطيع أن تخدمني؟

- أستطيع أن أحفر لك قبراً عندما تأمرني بذلك.

- فأل الله ولا فألك. قال... قبر... قال...

قذف العجوز بهذه الكلمات قبل أن يقذف بسحنته خارج البيت، وقد خرج مثل مسرحي بارع. خاصة وأنه راح يهرول بجلبابه كالهارب من ظلام القبر. فابتسمت وأنا أنظر بشيء من الازدراء إلى سحنته المريبة، ويوسف بدا غاضباً أكثر مما ينبغي. ثم قال معلّقاً:

- رغم كل شيء فهو إنسان وليس ذبابة.

قال ذلك وهو يهوي بالمذبة على ذبابة جديدة، وإذ أظهر يوسف براعة في قتل الذباب. رحت أحدثه عن زيارتي الفاشلة للمدير، وحتى لا يعود إلى هذا الحديث المزعج ثانية. أقنعته بتجاهل هذا الموضوع إلى أن ينتهي من تلقاء ذاته. أقنعته بذلك ثم طلبت منه أن يساعدني في قلي البطاطا.

وهكذا فقد أكل يوسف البطاطا واستمتع بمذاقها، ومع البطاطا شربنا العرق وتسامرنا إلى وقت متأخر بعض الشيء. لقد تحدثنا بشكل خاص عن الموظفين وانعدام المبادرة عندهم. حتى المسؤول اللامع الذي أكل لسان العجل لم نجد في سلوكه ما يشجعنا على استثنائه. لأنه يبقى موظفاً ليس إلا.

المهمّ أنّ القافلة موجودة. عربة القيادة أولاً، وبعدها العربات الأخرى، وحتى لو تشابهت هذه العربات. فهي تقسم إلى نوعين. عربات مخصصة للمهام الفوقية، وعربات مخصصة للمهام التحتية، ويكفي أن يقفز شخص ما إلى العربات المخصصة للمهام الفوقية حتى يصبح فوقياً.

أما المسؤول اللامع فسيظلّ فوقياً طالما بقي في العربات المخصصة للمهام الفوقية، ومهما ازداد وزنه فسوف يعود إلى العربات الخلفية

ما إن يفقد ارتباطه بالشخص الذي ساعده في القفز إلى مقعد المسؤولية. هذا مع العلم أنّ قدرته على القفز ونجاحه هنا لا تعني بالضرورة امتلاك الأهلية والكفاءة إلا في هذا النوع من الرياضة العجيبة.

يوسف أشار في حديثه إلى ساحة المقام بعدّها ساحة لها جاذبيتها. كما أنّ دسم الولائم التي تقام فيها مفيد ومهمّ في تقوية الخيوط والروابط الروحية.

وقال قبل أن يرحل:

- اللعنة.

أما أنا فقد تشقلبت حول محور أفقي لأنّ خواطري كانت تتمحور بشكل خاص حول صناعة الكروش التي كانت تطغى على كل شيء. حتى أشكالها كانت تطغى، ولولا أمي التي نادتني كي أطفئ مصباح الكهرباء في غرفتها لما استطعت الابتعاد عن أمجاد الكروش وسيرتها.

وأذكر أنني بعد أن أطفأت المصباح في غرفة أمي. سحبني ضوء القمر إلى شرفة المنزل، وهناك انتابني إحساس عميق

بروعة هذا الوجود. علماً أنّ قطرات الندى كانت تضيف إلى صفاء الليل وعذوبته صفاء وعذوبة خالصة. ما جعلني أتذكّر بوضوح وجه حبيبتي.

تذكّرت وجهها ورقتها، وتذكّرت شعرها المنسكب بعذوبة على كتفيها. كما تذكّرت خطيباً كان يلقي خطابه في ساحة ما تزال في طور الإنشاء. مع أنّ العابرين كانوا يفرون بعيداً عنه، وعن القمامة، والغبار المتطاير.

ثم تذكّرت الساحة ذاتها. لكنها في هذه المرة كانت قد رُصفت بالإسفلت، وزُينت بالأشجار التي زُرعت في مداخلها، وفي محيطها. كما غصّت بالطلاب الذين أُخرجوا من مدارسهم للاستماع إلى المزيد من الخطابات، والغريب أنني كنت واحداً من أولئك الطلاب الذين يصعب ضبطهم. فقد تركت صفي وزملائي لأبقى إلى جانب تلك الطالبة - إذ كنت أحبها، وكانت هي تحبني أيضاً... كان هناك حبّ يجمعنا، ويا له من حبّ ذاك الذي كان! لم أكن مهتمّاً إلا بها. فأسير عندما تسير، وأتوقف عندما تتوقف. كنت أحبها وهذا ما لا أستطيع إلا أن أحسّ به. بل ها أنا أراها وهي تتوقف عن الهتاف لتبحث عني بعينيها الرائعتين، وعندما تراني كان وجهها يشتعل بما

هو أهم من الهتاف، وقلبها يخفق، وصدرها يعلو ويهبط، ثم يعلو هتافها الجميل... يعلو ويعلو...

عندئذ كنت أتسمرّ في مكاني لأستشفّ بكل ما أملكه من أحاسيس سحر انفعالاتها الملتهبة - ليس هذا فقط - بل كنت أعتقد جازماً أنني وزملائي الطلاب قادرون على خلق بطل يستحق الاحترام.

ثم تذكرت على نحو ما تلك الحقبة من حياتي والتي هي بالتأكيد أهم من كل ما سبقها وما جاء بعدها. لقد تذكرت بشيء من الأسف ذلك الحمار الذي قضيت تحت إدارته أهمّ وأطول مرحلة في حياتي.

الفصل الثاني عشر

إنه لأمر شنيع أن يعيش المرء في بيئة محكومة بكل هذا البؤس الجوّال. علما أننا لسنا من سكان البادية، وجبالنا شاهقة الارتفاع، ووديانا عميقة أيضاً. في الماضي كان الزجّالون يشحنون الذوق العام بكل ألوان التحدي، واليوم اختفوا تماماً. من جعلهم يختفون؟ هل لك علاقة بهذا الأمر؟

إنك مهما بحثت الآن قد لا تجد من يجرؤ على رفع صوته بمقطع زجلي واحد، وما نقرؤه لأدبائنا وكتابنا يكاد يكون عبئاً علينا. في حين أنّ كاتباً من اليابان مثلا يرى في خرافات الشعب الياباني وأساطيره مفخرة لا تقل عن مفخرته بالعلوم والتكنولوجيا العالية المستوى، ولا تراه يخجل من أي ظاهرة أو أي نشاط يمكن أن يكون موجوداً عند اليابانيين.

أما السؤال الأهم لكل الناطقين باللغة العربية فهو التالي: كم عدد الذين قرؤوا ابن خلدون؟ إذا كان ثلث الناطقين باللغة العربية لا يعرفون القراءة والكتابة. فهذا يعني أنّ هؤلاء لم يقرؤوا

ابن خلدون، والذين قرؤوه من الثلثين الباقيين كيف استفادوا من تراثه؟ قد لا توجد إحصائيات. لأنّ الإحصائيات التي تبين جهل النافذين في عالمنا العربي ممنوعة حتماً، وهناك الكثير من الأمور الممنوعة أيضاً.

أما السيّد طاووز فإنّ أمره يظلّ ملتبساً. سواء في هذا الأمر، أو في أية أمور أخرى. لأنه وإن لم يكن من آلهة السوريين القدماء. فهو يتشبّه بهم، وأغلب الظنّ أنه ليس من مريدي تلك الآلهة وإن كان سلوكه مبنياً على تراثهم، ومع أنه زعيم قبيلة ليس إلا، ووالده كان زعيماً من قبله، وقد ورث طاووز القصر والثروة والقبيلة أيضاً. مع ذلك فإنّ سلوكه السياسي تميّز بالقفز والتشقلب عمودياً في بعض الأحيان، وأفقيا في أحيان أخرى، وحيث أنّ سلوك هذا الرجل ما انفك يدل بوضوح على الفلكلور السياسي الخاص بسورية القديمة. حيث تنوعت في تلك الحقبة من التاريخ الممالك والحضارات.

أما أن يكون طاووز أميناً على ذاك التراث. فمثل هذا الأمر قد يكون صحيحاً بنسبة كبيرة جداً، ولهذا السبب فإنّ سايكس وبيكو أوجدا الخارطة السياسية التي تساعده على البقاء.

وما قد يكون مفيداً قوله هنا هو أنّ الدول التي دعمته جعلت أيضاً من دركون شخصا مهمّا للغاية. فقد غادر قبيلته فقيراً وعاد إليها غنياً، ولكونه الأكثر ثراء في قبيلته. أصبح زعيماً عليها دون عناء يذكر. لكن ما الذي يعنيه كل ذلك؟

إنّ اتفاقية سايكس - بيكو التي قسمت سورية القديمة إلى وحدات جغرافية وسياسية صغيرة ما تزال أمرا قائماً، وما يسمى الآن بالإمبريالية المتوحشة قفزت إلى الخلف متجاوزة الألفي عام، وقد قامت بهذه القفزة لتحيي أدبيات الإمبراطورية الرومانية المتوحشة بكل تفاصيلها، والكنعانيون هم الضحية على كل حال. إذ أنهم ومرة أخرى يتعرضون إلى الحرق والصلب وكل أنواع التنكيل. ما يعني أنّ طاووز لم يستطع رغم كل قفزاته وألعابه البهلوانية من أن يضيف إلى زعامته أي عنصر من عناصر القوة.

إنّ ألعابه في ظل خارطة سايكس بيكو ستظل عبثية وفاشلة، ومثله كل العائلات العربية التي تحكم دولاً وشعوباً أثبتت فشلها على كل صعيد. إننا نعيش أيها الثور في متاهة من السخف.

حتى والدك الشيخ أعطاني ذات الانطباع. فقد رأيته منذ أيام في (حاكورته) بذات اللباس (أسود وأبيض) كان الوقت صباحاً،

وكنت أشرب قهوتي على الشرفة، وبالمناسبة فإنني عندما رأيته كأني كنت على موعد معه. ما إن يظهر في حاكورته حتى أراه برأسه الحاسر، ونظراته المتسولة ، ويديه المبسوطتين.

لعله كان يتفقد شتلات التبغ. فاعتقدت أنّ يديه ملوثتان بدبقها، ثم خطر لي أنه يتمتم بشيء ما؟ فقلت لنفسي «لعل الشيخ يدعو إلى ربه بصمت» في كل الأحوال لم يكن ما رأيته غريباً، ولم تكن المرة الأولى التي أرى فيها الشيخ يمشي في الحاكورة بذات الطريقة وذات اللباس. (أسود وأبيض) كأنّ ما بيننا لم يتغير. لا نظرتي إليه تغيرت، ولا هو تغير أيضاً.

وإلى أن غادر الحاكورة متجهاً إلى المنزل. أبقيته تحت ناظري لأفترض أنه ومهما كان حاله من ضعف، أو تحدب، أو انحلال في قسمات وجهه المعتلة بوضوح. أقول رغم ذلك. فإنه كان قد وضعني في صميم حالته من دون أي عناء.

بعد ذلك اختفى الشيخ داخل منزله، وأنا انتابني شعور غامض لم أستطع معرفته كما ينبغي، وطبعاً لم أحمّل الشيخ أية مسؤولية. خاصة وأنه لم يعد ذلك الرجل الذي لا يضعف ولا يخطئ ولا

يتردد، وحتى أنا لم أعد ذلك الفتى الصغير الذي ينظر إليه بعدّه فارساً أو صنديداً.

هل تعرف لماذا؟ لأنني رأيته عندما كنت يافعاً في حالة يرثى لها... في ذلك اليوم شاهدته يسرع الخطا خلف ملّاك يركب بغلة مكسوة بالقماش، وشاهدت مجموعة من الرجال يسيرون خلف الملّاك أيضاً.

لكن ما لفت انتباهي في ذلك كله هو وجهتهم التي كانت بعكس المألوف. إذ أنهم كانوا يتجهون صوب الحقول. في حين كان الفلاحون يعودون في مثل هذا الوقت إلى منازلهم، ولهذا السبب لحقت بهم يدفعني إلى ذلك شعور غامض، وفضول كان الأساس الذي جعلني أتقبّل بسعادة لا توصف كل خطوة خطوتها متحسساً السراب وسخونة الأرض.

نعم إنها الأرض التي أعطتني منذ خطوتي الأولى إحساساً دافقا بالألفة والحب... ذلك لأنني كنت حافياً مثل الطيور التي كانت تحيي مع أفراخها مهرجان مغادرة الأعشاش، وقد ظلّت إلى جانبي تطير من شجرة إلى أخرى. حتى الزواحف لم تشأ أن تتركني وحيداً. فنسيت إلى أين أمضي ولماذا؟

ولولا أنني شاهدت بعض الفلاحين الذين بقوا في حقولهم يسقون الخضار من الساقية التي تفرعت من النهر لنسيت الرجال الذين خرجت في أثرهم. غبر أني تابعت سيري إلى أن بلغت الجسر، وهناك شاهدت والدك الشيخ ملتحقاً بالموكب على الطريق التي تتلوى عبر الهضاب باتجاه القرى الواقعة في الأعالي.

لقد رأيته قبل أن يختفي خلف منعطف بعيد، وكم أثارني ذلك المشهد. تلك الهضاب المزروعة بالقمح كانت أعجوبة الصيف، وعلى ضفتي النهر كانت أزهار الدفلى الوردية رائعة التكوين. فتوقفت على الجسر لأمتّع ناظري بكل شيء، ولعلّ مياه النهر التي كانت تتدفق بصخب رتيب شغلتني بعض الشيء، وما أزال أذكر أنني عندما أردت التفكير في أمر آخر. سرعان ما فقدت الأمل في قضاء وقت مريح. فخلعت ملابسي وغطست في حوض الجسر.

خلال هذا الوقت... رأيت بين شجيرات الدفلى صبياً أصغر مني... أظنّ أنه كان يرافق أمه التي جاءت لتغسل ملابس عائلتها. إذ كانت تسخّن المياه في قدر كبير بعض الشيء، وكان هناك دخان يتصاعد من النار التي أشعلتها المرأة تحت القدر، وأذكر أنني

صحت بالصبي ليسبح معي. لكنه توارى بين شجيرات الدفلى... إما خوفا، أو لأنّ أمه طلبت منه ذلك.

بعد أن غاب الصبي عن ناظريّ... شاهدت مجموعة من النساء بملابسهن الجديدة كنّ عائدات من زيارة المقام، ثم رأيت خادماً ينوء تحت حمل ثقيل وهو يتجه صعوداً. بعده عبرت الجسر امرأة وابنتها، ثم لم أعد أشاهد أحداً.

وإلى أن مضى بعض الوقت شاهدت مجموعة من الرعاة يسوقون ماشيتهم صوب النهر، ثم شاهدت الملّاك صاحب البغلة عائداً بمظلته السوداء. كما شاهدت أتباعه يلحقون به. لقد عادوا جميعاً بمن فيهم والدك الشيخ. فتهيأت للسير خلفهم من جديد.

كنت أعتقد أنّ تعقب الكبار يجعلني كبيراً. خاصّة وأنّ والدك كان رجل الملّاك وخادمه. فلما أتيحت لي الفرصة لأراه على حقيقته. راعني أن أراه ذليلاً... ملتحقاً بمن هو أقوى منه. فما كان مني إلا أن لحقت به متأثراً بانكساره وانحناءة عنقه.

لا بد أنّ الملّاك هو من جعله في تلك الحالة، وإذ قُدّر لي أن أراه كما هو. راودني شعور غامض ما لبث أن تحول بمرور الوقت إلى لغز راح يتوهج في داخلي كالقيظ الذي تكثّف فجأة.

ومع وقوفي عند تخوم هذا اللغز. رحت أتمهّل مترقباً حصول معجزة ما. أي معجزة يحدث بنتيجتها ذوبان كل الأشياء التي كانت تؤثر في رأسي، وبما أنّ شيئاً من هذا لم يحدث. أخذت ألوم نفسي باعتباري المخطئ الوحيد.

لقد لمت نفسي بعد أن قادني فضولي إلى رؤية الحقيقة البشعة التي ما كنت أحب أن أراها، وما أزال أذكر أنني انشغلت بهذه الحقيقة التي سطعت أمام عيني كضوء الشمس، وفي النهاية استطعت أن أدرك بعض مفرداتها:

منها ما كان متعلقاً بسحر المكان، أو أنّ اشتهاء الأرض إلى دمي كان قد تسلّل عميقا في وجداني، أو هي الشمس الحارقة التي كانت تلقي إلي برسائل لم أفهمها. إضافة إلى ما كنت ألاحظه من خلال التفاصيل التي كانت توحي بها تضاريس تلك الأرض. مثل احتراق الشهوة التي كانت تجمع بين الأشياء التي تومض في رأسي كهمسات الجنون.

هكذا رحت أترنح تحت كثافة هذا المتخيّل الثقيل، وإلى أن عدت إلى المنزل كانت الشمس قد غابت تماماً.

إنّ هذا المشهد مازال حيّاً في ذاكرتي. كما أنّ المسافة التي كانت تفصلني عن والدك الشيخ مازالت على حالها. كأنّ شيئاً لم يتغيّر. لا الزمن تغيّر، ولا أرواحنا المجبرة على الاصطفاف خلف صاحب البغلة أو أي ملّاك آخر تغيّرت. كأن دوام الله لا يغني عن دوام هؤلاء المتجبرين، وأقدار الله لا تعدو أن تكون إضافة أخرى إلى أقدار هؤلاء الساعين إلى الخلود.

هكذا استعدت تفاصيل ذلك النهار القديم بعد أن رأيت والدك يغادر الحاكورة. في حين كانت فيروز تغني:

(يا طير يا طاير على اطراف الدني).

(لو فيك تحكي للحبايب شو بني).

(يا طير... يا طير).

الفصل الثالث عشر

نعم إنها فيروز صاحبة الصوت الجميل. ناهيك عن عاصي. زوجها المخطوف تماماً من آلهة الموسيقا. لكن هل تعلم أيها الثور المبجل لماذا نتعلّق بالشعر والموسيقى والرسم وغيرها من الفنون؟ ولماذا تختنق صدورنا في غيابها؟ أنا لا أعرف... لكن هناك من يقول بأنّ الحالم يسعى لأن يخلق عالماً جميلاً، وبما أننا قد لا نستطيع أن ننجز إلا القليل مما نحلم به، وإنّ إدراكنا المسبق بأننا عاجزون وتافهون بالقياس إلى أحلامنا الكبيرة. يجعلنا نلجأ مرة إلى الغناء، ومرة إلى الأدب، ومرة إلى الفلسفة، ومرة إلى البكاء للتخفيف من قسوة هذا الشعور بالعجز.

نعم نحن عاجزون يا سيّدي. عاجزون حتى ونحن نعيش نشوة انتصارنا. لأنّ نشوة المنتصر سرعان ما تزول، والمهزوم لن يتركك تفرح بانتصارك طويلاً. فهو لا بدّ سينتزع منك انتصارك ذات يوم، وإذا لم يستطع. سيخلي الساحة لغيره كي ينزع انتصارك منك.

أليس هذا ما حدث معك؟ وما الذي يحدث عندنا الآن؟ أليس هو صراع حتى الموت من أجل الانتصار؟ والمضحك المبكي أننا لم نستطع تحقيق شعار الوحدة العربية، فعجزنا عن تحقيق شعار الوحدة الوطنية. لكن ماذا يعني كل ذلك عندما تشعر بالجوع؟ لا شيء تستطيع فعله سوى إعداد المتوفر من الطعام، وهذا ما حدث معي. فلا حبيبتي التي كنت أفتقدها بشدّة، ولا فيروز التي كانت تنادي الطير الطاير على اطراف الدني. منعتاني من التفكير بمعدتي الخاوية.

لهذا دخلت المنزل لأتناول فطوري. أما فيروز فقد توقفت عن الغناء بعد أن شغلني عنها زائران اثنان. إنهما عبد الله، وحامد الجينكس. علما أنّ عبد الله هو من أقنع هذا الأخير بزيارتي.

هذا ما أفصح عنه الجينكس موضحاً ومعللاً حرجه لكونه لا يقوم عادة بزيارة الآخرين دون موعد، وهذا ما جعلني أنظر إليه كالمشدوه. فقد فوجئت حقاً بحرصه على المواعيد، ولكي أتخلص من هذه المفاجأة. طلبت منه أن يعيد ما قاله ثانية. فلما استجاب لطلبي. أدركت ما كنت أبحث عنه، وتأكدت بما لا يقبل الشك أنّ حامداً هذا لا يستطيع أن يفاجئ أحداً، وفي المقابل قد لا يستطيع أحد أن يفاجئه في شيء.

المهم أنّ عبد الله كان يتحيّن الفرصة ليتلو على مسمعي ما بقي من سيرة والدك الشيخ، وبانتظار الفرصة المناسبة حاول أن يغمز من قناة حامد. فرد عليه حامد بشيء من الانفعال. فانتقل عبد الله للحديث عني، ووصفني بأنني شخص انطوائي. قليل الخبرة والمعرفة بشؤون المجتمع، ثم انتقل إليك، ثم إلى والدك. حيث أخبرنا كيف بهدلك والدك بسبب عشقك لخديجة، ثم كيف أصبت بانهيار، وكيف انتحبت مثل طفل عندما تخيلت خديجة مع رجل آخر، وحتى عندما اعترض حامد على هذا الخبر لم يأبه عبد الله لاعتراضه... رغم أنّ حامداً كان قد صمت تماماً، ثم مضى بعض الوقت وعبد الله يسرد سيرتك النضالية دون مقاطعة. بحيث أنّ ما سمعته لم يفاجئني بقدر ما فاجأني صمت حامد، والعلامات التي استشرفتها من وراء هذا الصمت لم تكن مطمئنة على كل حال. كما شعرت بالقلق جراء عجزي عن تفسير ما أراه. فهل كان حامد يصغي؟ أم أنه لا يصغي؟ وهل كان يفكر؟ أم لا شأن له بالتفكير؟ وهل هو وقور حقاً؟ أم هو أبله؟ وهل هو. هو؟ أم هو شخص آخر؟

كثرت أسئلتي وعبد الله لا ينفك يسرد روايته بحماس. هنا أراد عبد الله أن يبرّر روايته فقال:

- وددت أن أوضّح للسيّد حامد أموراً حدثت في الماضي.

فقال حامد مؤكّداً أنه يعرف قصّة خديجة أكثر منه، وقد نطق حامد بهذه الكلمات ليؤكّد على وجوده ليس إلا، وقد يكون هذا ما أراده حتماً، ولعلّه استجمع كل عزيمته ليكون له هذا الصوت الذي يفخر به، ورغم أنّ صوته كان ضعيفاً ورخواً فقد حمدت الله على رحمته.

فسارع عبد الله إلى حمد الله مرات ثلاث، ثم تابع حديثه هذه المرة عن الحفلات التي كنت تحييها على شرف الحزبيين سواء في المنطقة أو المحافظة، وكيف استطعت بواسطة هذه الحفلات إقامة علاقات راسخة رفعت من أسهمك وساعدتك في الوصول إلى أول منصب لك **(**مدير دائرة مع سيارة وسائق**)**.

هل مازلت تذكر ذلك اليوم؟ أخبرنا عبد الله أنك أقمت حفلة في بيتك شارك فيها العديد من الأصدقاء والطامحين. هل تذكر كم زجاجة شربتم في تلك الليلة؟ لا بأس. لأنّ عبد الله أخبرنا أنّ الضيوف شربوا حتى ترنّحت رؤوسهم. كما سكر من سكر، وتقيأ من تقيأ، والبعض تخفّفوا من ملابسهم استعداداً لاستقبال الربيع الذي حلّ في أروقة رؤوسهم رغما عن الصيف والإمبريالية والرجعية، ورغما عن الشيخ الذي كان يراقب ضجيجهم عن كثب.

طبعاً أنا لا أقصد هنا الربيع العربي الذي روّجت له القنوات الإعلامية المرتبطة بالمجهول (X) فأحلامنا بالربيع قديمة، ورغم الوعود التي انهمرت علينا كمطر الربيع. لم نحصد سوى الخيبة والوهم.

أظنّ أنّ مناصريك أقاموا في تلك الليلة مهرجاناً جيداً، وهم بعد أن افتقدوا المهرجانات الشعبية التي كانت تقام في الأعياد الدينية لم يكونوا يعرفون أنهم يؤسسون لنوع آخر من المهرجانات التي استمرت من بعدهم.

لقد أخبرنا عبد الله أنّ الخطأ الوحيد الذي سجّل في تلك السهرة هو جرأة إبراهيم على السخرية من والدك، ولعلّه لم يعرف بخطيئته إلا بعد أن وقف والدك الشيخ أمامه كالمارد. ما جعل كيانه يتشقلب رأساً على عقب.

هنا سقط حامد، وأنا وقفت كالمشدوه لا أصدق ما حدث. لقد تحققت نبوءتي عندما رأيت حامداً يسقط كما تخيّلته تماماً، وربما لهذا السبب عجزت عن الحركة، وحتى لم أستطع تقديم المساعدة له.

لقد فضّلت على ما يبدو أن أشبع ناظري برؤيته ممدداً على الأرض. فقط لأنني كنت قد تخيّلت الحادث كما جرى تماماً،

وعبد الله الذي فوجئ بالحادث أدرك أخيراً أنه أسرف في نقل أخبار الشيخ. غير أنه لم يربط أبداً بين حديثه وسقوط حامد. إذ قال وهو ينحني فوقه:

- هذا الجينكس لا صلة له بالشيخ، وطالما أنه فقد وعيه فذلك بسبب نقص السكر.

ثم قال وهو يخطو ليخرج:

- سأذهب وأخبر زوجته بما حصل. لعلها تعرف كيف تتعامل معه؟

آنذاك أمسكت به من قميصه، وحين استدار نحوي دفعته إلى المقعد الذي كان يجلس عليه. كان بودي أن ألكمه على وجهه. لكن خضوعه لي منعني من ذلك.

بعد ذلك أحضرت ملعقة سكر وطلبت منه إعطاءها لحامد. ففعل، وهكذا أمضينا نحو ساعتين من الترقب والانتظار. استطاع بعدها حامد من الذهاب إلى منزله.

الفصل الرابع عشر

بعد أن ذهبا. حامد وعبد الله. تكوّمت على أحد المقاعد مثل أيّ شخص مهان... بل إنّ مئات الأعوام من العزلة كأنها حضرت فجأة لتقول لي... أنت لا شيء، ووجودك لا معنى له. علماً أنني كنت أفكّر بعبد الله المهووس بسرد فصول روايته التي لا تنتهي. كأنّ شيطاناً كان يدفعه لسردها، وفي هذه المرة أحضر الجينكس ليكون شاهداً.

لهذا السبب فاجأته بزيارة إلى منزله حيث كان يروي تفاصيل الحادث الذي تعرّض له حامد. فصمت حين رآني، وبعد أن جلست على كرسي قدموه لي نظرت إلى عبد الله بكثير من الشك. فإذا به يتلعثم مرتاعا:

عندئذ قالت زوجته، وكانت على ما يبدو قد فوجئت بزيارتي.

- لا تشغل نفسك به، والأفضل أن لا تسمح له بزيارتك. إنه مجنون، وأولاده مجانين أيضاً. أما أنا فمريضة والحمد لله. لقد

ابتليت به منذ أربعين عاماً، وإلى الآن ما زلت لا أفهم هذا الرجل، ولا أعرف كيف ستكون نهايتي معه؟

فقاطعها عبد الله بقوله:

- الحمد لله أنّ لسانك ليس مريضاً، ويمكنك أن تقولي ما تشائين.

ثم قال وهو يسحبني من يدي:

- تعال نخرج لأكمل لك بقية القصّة.

قال ذلك وخطا باتجاه الباب. فلما أصبحنا في الخارج. سحبت يدي، ثم قفزت في الهواء، وبعد أن وطئت الأرض. اتخذت وضعية المروحة، ثم رحت أدور إلى أن بلغت الساحة.

هناك قابلت مجموعة من الشباب كانوا قد تواعدوا على الاجتماع بغية الانطلاق إلى مكان ما. علماً أنهم وبعد أن شاهدوني. تريثوا لاعتقادهم أنهم سيجدون في صحبتي ما يروق لهم.

هذا ما فهمته من عاصم، وهو شاب تخرج من الجامعة منذ بضع سنوات دون أن يجد عملاً أو وظيفة، وحتى بقية أفراد العصبة كانوا إما طلاباً في الجامعة، أو هم تخرجوا حديثاً بانتظار السوق إلى خدمة العلم.

المهم أنّ عاصماً عرّفني على بقية أفراد العصبة. فذكر اسم عدنان، ومحمود، وسعيد، وجمال، وسيف الدين. فأطلعتهم بدوري على الحادث الذي تعرّض له حامد، ثم أوضحت لهم بطريقة ما أنّ الانطباع الذي أحمله في نفسي ليس جيّداً.

أوضحت لهم ذلك كي يتخلوا عن ابتساماتهم التي لم أر فيها ما يعزز ثقتي بهم. ذلك لأنني لم أكن معتاداً على رؤية أشخاص مبتهجين، وحتى لو صادفت مثل هؤلاء الأشخاص، وربما أكون قد صادفتهم. غير أنّ هؤلاء لم يتركوا في نفسي أي شعور باليقين.

هذا ما فكرت به وأنا أنظر إلى ابتساماتهم المريبة نوعاً ما، ولأنني كنت راغباً في صحبتهم. طلبت منهم أن يرافقوني إلى بيت حامد. فوافق عاصم على طلبي دون تردد، وقال لزملائه:

- ما رأيكم يا شباب. هل نذهب؟

ودون أن يسمع جواب أحد منهم. قال بالنيابة عنهم:

- نذهب... لِمَ لا نذهب؟

فقلت وأنا أسير أمامهم:

- لا أدري كيف تنظرون إلى ما أقوم به من ألعاب؟ ولكن اعلموا أيها الأخوة أنّ التعبير بهذه الطريقة قد يكون أفضل من كل طرائق التعبير التي تعلمتموها في مدارسكم، وأظن أنكم ستحتاجونها آجلاً أم عاجلاً. خاصة وأنّ التعبير باللغة يتطلب الكثير من الحذر. هذا إذا استطعتم أن تبدعوا أسلوباً مناسباً. لأنّ الأنماط السائدة ورغم كثرتها. فهي لم تجلب لنا سوى الموت والدمار، ولا أظنّ أنكم راغبون بالالتحاق بما هو سائد.

إنني بالأمس فقط، وكنت أقرأ رواية قديمة. لكنها مشهورة جداً، وكاتبها مشهور أيضاً، وقد شاء هذا الكاتب أن يصف في إحدى فصول روايته واقع المجتمع والدولة، وبالمناسبة فإنّ الرواية كُتبت في أواسط القرن التاسع عشر، وفي الفصل الذي أحدثكم عنه. قرأت ما يطابق واقعناً الآن مع فارق مهمّ، وهو أنّ ذلك الكاتب وهو يتحدث عن الظلم والفساد في بلده. رأيته مطمئناً إلى الشخصية الثقافية الوطنية المؤمل منها كنس كل هذا العفن. أما عندنا فأين يمكن إيجاد هذه الشخصية الثقافية؟ أظنّ أنّ أنظار السوريين متوجهة أبداً إلى كل الجهات، وبهذا

المعنى فهم يرون أنّ كل العالم لهم، وهم لكل العالم، وما هذه الألعاب التي أقوم بها إلا انعكاساً لرغبة دفينة في رؤية السوريين وقد أخذوا وضعهم الطبيعي في حضارة هذا العالم.

وأريد أن أقول لكم يا شباب إنّ شخصاً مثل عبد الله يستطيع أن يحدثكم عن الماضي، وحامد يستطيع أن يهمهم فقط، والموظفون بصورة عامة يشكلون قطيعا هائلاً من البشر، وهم يغادرون منازلهم في الصباح لينجزوا أعمالاً قد تكون شبيهة بالأعمال.

إنّ الواحد منهم يقدّم عنقه ليُربط في مؤسسة أو دائرة أجمل سني عمره فيمتلئ بالكآبة والحقد ردحاً من الزمن. بعدها يستطيع أن يذهب إلى القبر إذا أراد.

إنّ هذه الأنماط البشرية تبدو عاجزة عن كنس العفن الذي يغلف أرواحها، وستذهب إلى القبور بكل ما تحمله من عفن، وبانتظار تلك النهاية سيبقى حامد على حاله، وقد يكسب موظف ما بعض المال ليبني بيتاً، أو يتزوج وينجب أبناء، وقد يشتري سيارة ومزرعة إذا ما أتيح له أن يختلس ما يكفي من المال، وسيعتقد حتما أنّ الله يحبه.

إنّ قوانين هذا الواقع ومعادلاته التي تبلغ أحياناً حد الخرافة سوف تدفعكم ذات يوم للتفكير في طرائق مختلفة للتعبير عن أوجاعكم، ومع يقيني أنّ العلم والخرافة مصطلحان متوازيان يستطيع أن يغرد بينهما من يشاء. إلا أنني أبدو متأكداً من التقاء هذين المصطلحين في نقطة ما، وهذا يعني أنني لن أتفاجأ إذا ما سمعت منكم كلاماً مختلفاً.

فقال عاصم:

- حقاً أنا لا أوافقك الرأي. لأنني أبحث عن وظيفة، وإذا ما أتيح لي أن أنجو من الموت. فسوف أختلس كل ما أستطيع اختلاسه. حتماً هذا ما أحلم به، وإلا فمن أين سأبني بيتاً؟ وكيف سأتزوج؟

عندئذ أصدر أولئك الشباب قهقهات متتالية، وعاصم وجد ما يضيفه.

فقال متابعاً:

- إنّ ما قلته عن ذلك البلد لا شأن لنا به. أم لعلك تبغي إثارة انتباهنا؟ أهذا ما تريده؟ أنا أجزم بذلك، وأريد أن

أقول شيئاً: إنّ ألعابك عبثية تماماً، ولو كنت مجنوناً لما شجعتك على الاستمرار بها.

فقلت:

لقد قال لي أحد المجانين ما قلته أنت الآن، وبالمناسبة فهو ذكي، ويستطيع أن يشدك إلى لغته رغم غرابة المفردات والأفكار التي تجري على لسانه.

المهمّ أنه عندما رآني أقفز وأتشقلب... أخذ ينصحني ويوجهني كأنني تلميذ في صفه. إنني أختصر لكم ما جرى بيننا لأننا وصلنا.

وفعلا كنا قد وصلنا إلى بيت حامد. فجاهدت كي أبقى صامتاً، وقد طرقت الباب بيدي مع أنّ أحد الشباب تقدم وضغط على كبسة الجرس. فتردد في الحال صوت امرأة من الداخل، ثم مضت لحظات وانفتح الباب.

الفصل الخامس عشر

عندما شاهدتنا المرأة. تنحت جانباً. فدخلت أولاً، ثم دخل عاصم، وبعده دخل بقية أفراد العصبة، ولأنني كنت أتقدم الجميع. مشيت بخطا لا تتفق مع أفكاري التي غارت بعيداً.

إنّ ملابس المرأة، وألوان الجدران، والأرضية المبلطة. استقرت في عيني لحظات قبل أن تنزلق عبر ثقب أسود، وحامد الذي كان مستلقياً في فراشه سرعان ما شاهد فتحة هذا الثقب. فراح ينظر فيه لينبئني أنه ما يزال كما رأيته لحظة سقوطه، وبالتالي ينبغي أن أنتبه.

الشيء الآخر الذي لفت انتباهي هو أنّ حامداً كان يحمل في داخله رغبات عدّة. استقرت فوق بعضها لتشكل وحدة متداخلة لا يمكن الفصل بينها إلا بالتحليل الدقيق، ومع أنني لم أكن محللاً نفسياً، ولا دراية لي بهذا العلم. لاحظت أنّ إحدى رغباته كانت تضغط عليه بقوة كي يبقى صامتاً، والرغبة التي تليها كانت تدفعه بقوة أكبر لكي يتحدث عن مرضه.

لقد تأكدت من وجود هذه الرغبة عندما أخذ يحدثنا عن مرضه، ثم فوجئت أكثر عندما لاحظت قوة هذه الرغبة في توجيه لسانه. فقد تحدث بداية عن فهمه الجيد لمرضه. خاصة مهارته في التعامل مع هذا المرض ومعرفته بخفاياه. فمثلاً هو يعرف نسبة السكّر في دمه دون الرجوع إلى طبيب أو مخبر، وروى لنا بعض الأحداث التي جرت معه بالتفصيل الممل. مرة مع الطبيب فلان، ومرة مع المخبريّ فلان، ومرة مع الطبيبة التي اختلف معها على نسبة السكّر استناداً إلى العوارض التي ألمت به، وفي تلك المرة بالتحديد. راهنها على نسبة السكّر قبل إجراء التحليل، وبعد التحليل. ربح حامد الرهان. أما الطبيبة فقد وقفت مندهشة لا تعرف كيف تعبر عن إعجابها بذكائه.

كل أقواله سمعناها دون أن نقاطعه. لأنّ حديثه كان صادقاً ومتوازناً إلى حد بعيد. خاصة عندما راح يتحدث عن جهاز التحليل خاصته.

في البداية ذكر حامد كيف اشترى الجهاز بمئات الليرات، وفيما بعد. أي بعد أن تعطل الجهاز. لم يترك طبيبا معروفاً إلا وذكر صلته به. فقد تطوّع الجميع كما قال لتأمين جهاز بديل، وأحد الأطباء

طلب له جهازاً من الخارج. حيث اتصل هذا الطبيب بصديق له يعمل في أمن المطار، وهذا الصديق طلب بدوره من أحد الطيارين أن يشتري له الجهاز من بلد المنشأ. فكان جواب الطيار بعد أن سافر طبعاً إلى بلد المنشأ (الشركة أوقفت صناعة هذا الجهاز).

هنا تدخلت زوجته بصورة مفاجئة. حيث وقفت أمامنا، وبابتسامة ساخرة قالت:

- كلما جاءته نوبة يستفيض في الحديث عن مرضه. لذلك أنصحكم بألا تعوّلوا كثيراً على ما يقول.

قالت هذا الكلام مثل أم تعرف حقوقها وواجباتها خاصة عندما يتعلق الأمر بولدها العاجز المريض، وهذا هو حامد الذي يعرف حدوده لا ينطق بحرف واحد. فقط هو يسبل جفنيه ويشيح بوجهه. فلما غادرت زوجته. طلبتُ منه مرافقتنا إلى المقبرة... قلت له:

- إذا رافقتنا قد تتخلص من آثار تلك الوقعة، وذكّرته بهواء السنديان العليل. لأنّ المقبرة محاطة بأشجار السنديان، وفيها فسحة للموت الذي ينتظرنا جميعاً.

لا أعرف لماذا قلت له تلك الكلمات. خاصة وأنني لم أخطط لذلك. أما حامد فلم يجبني إلا بعد أن مرت دقيقة على الأقل.

اعتقدت خلالها أنه سيرفض. لكنه ما لبث أن نهض، ثم أشار بيده كي أتقدمه. فأشرت بدوري إلى الشباب كي يخرجوا، وهكذا فقد خرجوا أولاً، ثم خرجت وحامد يتبعني.

وحيث بقيت إلى جانب حامد. فإنّ الشباب سبقونا. لعلهم أدركوا في لحظة ما أنّ أفضل ما يفعلونه هو الإسراع كي لا يصابوا بالاكتئاب. لكنهم في النهاية توقفوا تحت أكبر شجرة سنديان في تلك المقبرة، وهكذا فقد التحقنا بهم، ثم أخذنا نستذكر أسماء الآباء والأجداد. هذا قبر الشيخ محمود، وذاك قبر الشيخ محمد، وفي الوسط قبر جدنا الأول.

أمضينا وقتا لا بأس به ونحن نتحدث ونتنسم هبات الهواء اللطيفة الباردة. فلم ننتبه إلى الوقت، وكم لبثنا واقفين. بعد ذلك جلسنا على سور المقبرة الذي يرتفع عن الأرض بمقدار نصف متر تقريباً، ثم مر بعض الوقت ونحن صامتون. حامد سكت من تلقاء نفسه، وأنا كنت قد سبقته إلى الصمت.

إنّ كل ما أردته هو أن يرافقني حامد إلى المقبرة. فوافق دون أن يخاف. ولكن ممّ يخاف طالما أنني لم أفكر في إيذائه؟ وحتى لو فكرت فقد كان هناك آخرون.

عندما فكرت في هذا الأمر. انتابني شعور بالخوف. فقلت:

- أظنّ أنّ السيّد حامد ليس مغرما بهذه الدنيا رغم نجاحه الأكيد في إثبات وجوده، وهذه الحرب القذرة لم تكن منصفة. فقد حصدت الشباب الأصحاء الأقوياء، وأبقت على الضعفاء، والمرضى، والعجائز.

فقال حامد:

- لكلّ أجله، ولا أحد يموت عوضاً عن الآخر.

هنا اختلفنا، وكم رغبت في أن أصفعه مرة واحدة كي أراه يسقط سقطة لا قيامة له بعدها. لكنّ عاصماً الذي أكّد أنهم مغرمون بالحياة، وأنهم متفائلون رغم فظائع هذه الحرب. أبعد عني هذا الخاطر.

فقال حامد:

- بشرط أن تعرفوا كيف...

فقال عدنان الذي كان مكشّراً بطريقة تثير الضحك:

- وهل تشك في معرفتنا يا رجل؟

عندئذ قلت مخاطباً الشباب:

- مهما امتلكتم من معرفة وحيوية فإنّ فطرة السيّد حامد أقوى من كل ما تعرفون، ومع أنني أحسدكم على شبابكم ونضارتكم. إلا أنني أجد نفسي مضطراً للاعتراف بقدرة هذا الرجل على التلاؤم والاستقرار فوق ركام الفشل والمصائب التي رفعته عالياً.

عندئذ ابتسم حامد بطريقة جعلت وجهه يشعّ بنشوة مصحوبة بالخوف، وقال معلقا:

- إذا كنت تقصد أنني مرتاح في عملي فقد أصبت. لأنني أذهب إلى الدائرة مرة واحدة في أول كل شهر، وفي هذه الزيارة أعرج إلى مكتب المدير كي يطمئن على صحتي. هذا إذا حالفه الحظ وكان موجوداً، وإلا فسوف يعاتبني عندما يراني في وقت آخر.

فقلت متابعا:

- وهناك أشياء أخرى لم يذكرها السيّد حامد. خاصة نجاحه في التعامل مع كل الذين اعتقدوا في وقت ما أنه سيئ الحظ. ابتداء بأهله، ثم، الجيران، ثم زملاءه في المدرسة، واعلموا أنّ مثل هذا الأمر قد لا يكون سهلاً على أشخاص مثلكم. أما

هو فقد تعامل مع حظه بصبر واستسلام، وفي النهاية لم يفشل. لأنه حظي بموافقة حسيب العجل على ضمه إلى لائحة الحزبيين، وفيما بعد وجد من يؤمّن له وظيفة محترمة، وها هو اليوم يحظى بالكثير من الاحترام. فأين أنتم من هذه السيرة الواعدة؟ ومن هو سيئ الحظ؟ هو أم أنتم؟

عندئذ قال عاصم:

- ما كان عليك أن تعيّرنا بما نحن فيه. لأننا نعرف كيف نعيش. بل ونعرف كيف نخلق مجتمعاً موازياً لمجتمعكم البائس هذا. فنحن متعاونون. متحابون، وما نحلم به ونسعى إليه يتجاوز أحلامكم وكل ما وصلتم إليه.

فقلت:

- هل تقصد أننا نشكل فريقين؟ إنك تذكرني برواية الأبناء والبنون.

- أنا لم أقرأ هذه الرواية، ولا أظنّ أنّ أحداً من رفاقي قرأها؟ الروايات لا تساهم في حل مشاكلنا. أنت شخصياً مهتم بالألعاب، وحامد مكلّف بكتابة التقارير عن كل ما يسمعه. فلماذا نهتم بغير مشاكلنا طالما أنّ أحدا لا يهتم بها؟

عندئذ بدا حامد مثل جنرال حقّ له أن يفخر بانتصاراته التي لا تحصى. إذ انتصبت قامته، وانتفخ صدره. كما ارتسمت على وجهه ابتسامة المنتصر. لكن دون أن يعلّق بكلمة واحدة، وهنا تجلت قوة حامد وقدرته على الصمت. خاصة وأنّ أي جواب يقدّمه لن يكون له أي معنى أمام ركام الأخطاء التي ما تزال تولد أخطاء أخرى. أما المشكلة التي واجهتني. فقد تبدّت لي في ذلك المكان على وجه التحديد. لأنّ المكان وإن بدا راسخاً في أذهان الكثيرين من أمثال حامد. إلا أنه في حقيقة الأمر ما كان يحتمل إلا القليل من الحركات لينهار مخلفاً الخراب.

وبما أنّ هذا الأمر، أو هذا المفهوم كان يلازمني كالهواء الذي أستنشقه. فقد بلغ إدراكي له في تلك اللحظة الذروة، وبسبب ذلك أخذت وضعية المروحة، ثم انطلقت كالزوبعة مبتعداً عن المقبرة ومن فيها.

الفصل السادس عشر

بعد أن قابلت عاصماً ورفاقه. اتضحت لي بعض الحقائق التي أجهلها. خاصة أفكار الشباب التي تجري على ألسنتهم دون مواربة، والغريب أنهم زاروني عند الغروب. فاستقبلتهم بكثير من الاحترام، وأبديت اهتماماً كبيراً بهم. حيث قدّمت لهم الشاي والسجاير، وخلال حديثنا طلبوا مني مرافقتهم إلى مهرجان تأبين الشهداء. فرحبت بدعوتهم، واتصلت بيوسف ليكون معنا، ولم أنس أن أسألهم عما فعلوه بعد أن غادرت المقبرة. فقال عاصم وهو يضحك:

- عندما رآك حامد تهرب كما قال. تأفّف مستهجنا انصرافك بتلك الطريقة، ثم قال لنا أنه معتاد على قراءة الفاتحة على أرواح الموتى كلما زار المقبرة، وفعلاً تنحّى جانباً ليقرأ الفاتحة. فمنعناه.

- وذهب إلى منزله دون أن يقرأ الفاتحة؟

- نعم. ذهب دون أن يقرأ الفاتحة.

- لماذا فعلتم ذلك؟

فقال عاصم ساخراً:

- كي يرفع تقريراً بنا.

- أنت تمزح؟!

- لا أعرف إن كنت أمزح أو لا...

أجاب عاصم بذلك، ثم توجه إلى زملائه يسألهم:

- هل كنا نمزح يا شباب؟

فقال محمود الذي يتميز بقامته الفارعة:

- المهم أننا أجبرناه على المغادرة.

قال ذلك ثم أطلق ضحكة جميلة. مع أنهم كانوا جميعاً يضحكون، أو يتحدثون عن مقالبهم مع الفتيات، وكيف يفتعلون المقالب فيما بينهم كي يجدوا ما يتسلون به.

أما وقد سألتهم عن همومهم وما يطلبونه بعيداً عن هذه المقالب الصغيرة. فقد كان عاصم واضحاً في إجاباته حيث قال:

- إنّ همومنا تتركز بشكل أساسي على انتهاء هذه الحرب، وهذا يعني أنّ الواحد منا عندما تكتب له النجاة فلا بدّ أن

يبحث عن وظيفة، وبعدها سوف يبني بيتاً، وبعد البيت سوف يبحث عن زوجة، وهكذا نستطيع أن نعيش كما يعيش كل الناس.

لقد تكفل عاصم بالإجابة عنهم جميعاً. في حين كان الآخرون يستخدمون هواتفهم النقالة للتشويش عليه. حيث كان جرس هاتفه يرن عند كل كلمة يقولها، وكان ينظر في هاتفه في كل مرة قبل أن يغلقه.

على هذا النحو أمضوا وقتهم في منزلي، وعندما وصل يوسف انطلقنا في سيارة أجرة.

انطلقنا عند السادسة تقريبا، ووصلنا عند السادسة والنصف. فما كان منا إلا أن انتشرنا في المكان امتثالاً واحتراماً لهيبة التاريخ الذي بقي حيّاً رقم قدمه، وبدا واضحاً لنا جميعاً أنّ المنظمين الذين اختاروا وادي الشهداء مقرّاً لإقامة المهرجان قد أحسنوا الاختيار. خاصة وأنّ الوادي الذي يتمتع بخصائص جمالية. كان يتمتع أيضاً برمزية تاريخية معروفة، فالتلال التي تحيط بالوادي تحتضن رفات الكثير من الشهداء. إضافة إلى مقامات الأنبياء والقديسين، وأغلب الظنّ أنّ تسمية الوادي (وادي الشهداء) جاءت إثر معركة

ضروس جرت بين السكان المحليين والغزاة الرومان. حيث سقط في تلك المعركة الكثير من الشهداء.

وبغض النظر عن المنتصر في تلك المعركة. لأنّ التاريخ لا يذكر شيئا عن ذلك. إلا أنّ التاريخ يحدثنا عن انكفاء أولئك الغزاة المتوحشين منذ ما يقارب الألفي عام.

لقد ذهب الغزاة وبقيت ذاكرة المكان شاهدة على بسالة أجدادنا. هذا هو تاريخنا على كل حال، وطالما أنّ منظمي المهرجان اختاروا وادي الشهداء فهذا يعني أنّ المكان ظلّ عابقاً برائحة ذكراهم جيلاً بعد جيل. هذا غير الشعر الذي يحمل في جسده الكثير من نبض التاريخ وآلام البشر.

ولا بدّ من القول هنا أنّ المناسبة اجتذبت الكثير من عشاق الشعر، بخاصة النساء اللواتي ازدحم بهن المكان.

يوسف بشكل خاص وجد ما يروق له. فقام باستطلاع المعالم القديمة أسوة بالآخرين. خاصة العين القديمة المزينة بقنطرة ودرج من الحجر، وهذه بقيت صامدة رغم اندثار الكثير من المعالم الأخرى، ولعلك تعلم يا فخامة التمثال أنّ الوادي أو ما بقي منه يشرف على البحيرة من جهة الشمال، وشكله بعد الغمر أصبح مثل

المثلث المتساوي الأضلاع. عين الماء تقع عند رأسه الشمالي، وعند ضلعيه المجاورين يرتفع جبلان شاهقان. أما مياه البحيرة فقد مسحت الكثير من آثار الوادي وذاكرة الناس.

يبقى أنّ الاجتماع في ذلك الوادي كان مثيراً على نحو ما. فها هي الشمس تغرب، والعتمة تهبط شيئاً فشيئاً على الوادي والناس والتماثيل التي أبدعها فنانون ونحاتون تكريماً للمكان.

هذا الجو المفعم بشيء من الغرابة أثّر علينا جميعاً. أما أنا فقد نشط خيالي باتجاه الماضي البعيد، ولم أجد بدّاً من التحدث مع يوسف بهذا الأمر. حيث افترضت أنّ سورية في تلك الأيام الغابرة ربما كانت أكثر تألقاً من اليوم، وربما كان ناسها أكثر تفاعلاً وإبداعاً أيضاً. ليس لأنهم أبدعوا الحروف والكلمات. بل لأنهم كانوا أكثر حرية من سكانها الحاليين.

أما خوفي على التماثيل وهذا الفن الذي يزيّن بقاعنا من عبث العابثين فكان أكبر من أن يقنع يوسف الذي كان يلازمني. ثم حلّ الصمت، وابتدأ المهرجان بكلمة أولى، ثم ظهر البدر من خلف الجبال في تلك اللحظات أيضاً. كما ظهر وجه حبيبتي كأنه بدر آخر، وهكذا رأيت في لحظة واحدة كوكبين يضيئان السماء

بكامل بهائهما. فتعلقت عيناي بهما. في حين بقيت أذناي تصغيان إلى كلمات الشعر.

ما أريد قوله هو أنّ المهرجان أعطاني ما يكفي من اليقين لاحترام المكان. خاصة وأنّ الجبال التي أحاطت بتلك البقعة السحيقة كانت تلامس الغيوم، والذين جاؤوا من كل مكان اجتمعوا في صفوف تصل برمزيتها إلى الحُقب التي عرفها الوادي قبل آلاف السنين.

أما الشاعر الذي أضاء هذه الحُقب فكان أكبر من كل اللغات التي كتب بها. لأنه شاعر محلي وشاعر عالمي في آن، وقد اصطحب معه شاعراً فرنسياً أحب التجوال ونذر وقته لأجله، ولو أنّ ما سمعته اقتصر على سماع الشعر فقط لعدت إلى منزلي منتشياً بالطمأنينة التي سكنت نفسي معظم الوقت.

إلا أنّ أحد الحاضرين سأل الشاعر الفرنسي عن نظرة الشعراء الفرنسيين إلى تجارب الشعراء العرب؟ فكان جواب الشاعر الفرنسي على النحو التالي:

- لطالما وُجّه إليّ مثل هذا السؤال في بلدان مثل بلدكم، وجوابي هو أنكم حاضرون في وجداننا، وينبغي أن تفخروا

بتجاربكم الإبداعية لما لها من حضور في ثقافتنا وفي شعرنا أيضاً.

السؤال (شقلبني) رأساً على عقب، والجواب أبعد عني الطمأنينة التي كانت تغمرني، وبدقة أكبر فقد اخترقني السؤال مثل سهم طائش، وجواب الفرنسي المتكبر لم يكن أقل قبحاً من سؤال السائل.

فلما انفضّ المهرجان وأخذ يوسف يتحدث عن انطباعاته حيث كان مغتبطاً على كل حال. كنت أشعر حقاً بتوتر شديد، والغريب أنّ هذا التوتر كان يدفعني لكي أتذكر بشيء من الأسف أول قفزة لي، وبغض النظر عن القفزات الكثيرة التي قمت بها لاحقاً محاولاً الابتعاد عن المكان الذي قفزت منه أول مرة - بغض النظر عن هذا الأمر - فقد اكتشفت أنّ طريق العودة أطول بكثير مما تخيلت - لا تنس أننا عدنا سيراً على أقدامنا - والغريب أنّ مخيلتي هي التي تعبت من السير. فلما حاولت قسرها على المتابعة. أخذت تئن.

يوسف كان يتحدث بحرارة عن كتاب سعد الله ونوس (عن الذاكرة والموت) وكان يشيد به أيضاً. حيث قال: إنه قرأ (بلاد أضيق من الحب) أكثر من مرة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى (رحلة في

مجاهل موت عابر) وحكاية القرد كبران بطل (الهجرة من الغابة) ومع أنّ حديث يوسف عن سعد الله ونوس أعاد إلي شيئاً من الطمأنينة التي افتقدتها. إلا أنني لم أستطع أن أضحك عندما قال يوسف في معرض تعليقه على نصوص الكتاب:

إنه حزن كثيرا لأنّ هذا الكاتب الكبير لم يكتب مسرحية عن بلادة الحمير وصداقاتها. إضافة إلى المناقشات التي تجري بينها، وكيف تأخذ بنصائح بعضها حين تتبادل النصائح، أو كيف تتخابث عندما تجتمع، وكم تبتهج حين تجد حقلاً من الشعير، وماذا تفعل بعد أن تشبع؟

وحيث وجد الجميع ما يضحكهم. قاطعتهم قائلاً:

«إنني قرأت شيئاً من هذا القبيل عن الثيران وليس عن الحمير، وما قرأته هو قصّة حملت عنوان (الثور الخامس)».

عندئذ أخذ يوسف يطالبني بسرد هذه القصة. كما أنّ عاصماً ورفاقه طالبوني بسردها أيضاً. فوافقت.

الفصل السابع عشر

قلت لهم:

- في زمن قديم. قديم. كانت تعيش في واحدة من المزارع خمسة ثيران مدربة. أربعة منها كانت خانعة قانعة، والخامس أظهر اختلافاً لأنه كان مختلفاً. أما لماذا هو مختلف وبأي صورة هو مختلف... فإنّ أي محاولة لشرح هذا الأمر قد تكون عديمة الجدوى. لأن الثيران الأربعة كانت تراه مختلفاً، وكانت تتهامس فيما بينها بذلك.

عندما كانت تجتمع هذه الثيران خلال فترات الاستراحة، أو تناول الطعام. فإنّ الثيران الأربعة كانت تحذر سطوة الثور الخامس وطريقته الآمرة عندما يخاطب أيّاً منها، ولطالما تعجبت من ازدرائه لعقولها وكل ما تتفوه به.

وفي المساء عندما يهجع كل ثور إلى مرقده. فإنّ الشيء ذاته يحدث دائماً. كل ثور يتأمل ما حدث معه في النهار ليحسب أين أخطأ وأين أصاب، وقد يحلم بأي شيء إلى أن يغلبه

النعاس وينام، وعندما يطلع الصبح من جديد يكتشف أنّ لا شيء تغير.

لكن في بعض الأحيان كان يتفق لأحد الثيران أن يطلق رأياً ما. ربما بسبب الملل، أو لأي سبب آخر. فيضجّ المكان بخوار عشوائي مقيت. غير أنّ هذا الخوار العشوائي لم يكن يعجب الثور الخامس، ولطالما لجأ إلى الصمت في مثل هذه الحالات مستهجناً عقول الثيران ورافضاً خوارها.

حينذاك كان الثور البطين يلجأ إلى استمالة الثور الخامس وحثه على إطلاق رأي ما. إلا أنّ هذا الثور نادراً ما كان يقبل بهذا الاستدراج، وإذا ما قبل به. كان يبسط مصادر معلوماته ليبين ما تحويه دائرة معارف الثيران وما لا تحويه، ثم يقدم رأيه ليبيّن جهل الثيران وتقصيرها مقارنة بسعة اطلاعه وقدرته على إبراز دوره.

إثر ذلك كان الثور البطين يظهر استجابة لأفكار الثور الخامس، وعقله ينشط بإجراء بعض المقاربات الضرورية. غير أنّ قيام الثور البطين بهذه المقاربات، وإحساسه خاصة بنشاط عقله، ومن ثم انتشائه بهذا النشاط. لطالما أفضى إلى مهزلة مضحكة. خاصة وأنه

كان يستعجل الردّ ليس بقصد الردّ، ولكن ليعبّر عن الجديد الذي استقر في وعيه. فيطلق عندها رأياً مضحكاً وبلا معنى.

أما الثور الكهل فكان يتصرف بطريقة مثيرة للسخرية في كثير من الأحيان. إذ كان يسعى لأن يدحض أي خوار لا يتوافق مع الطريقة التي حفظها من أسلافه، وإذا ما فشل في مسعاه، وغالباً ما كان يفشل. عندئذ لا يجد ما يفعله سوى الانفراد بنفسه بغية المحافظة على نفسه من الدنس.

علما أنّ الثور الكهل كان يرى في وضعه وانتمائه ما يجعله سعيداً بشكل ما، وكان يتساءل:

«لماذا تريد بعض الثيران أن تخور بطريقة غريبة عما تعلمه؟ وتلك الثيران القديمة ألم تكن تعرف كل شيء»؟!

غير أنّ العالم كان يتفكك بسرعة عجيبة، وعالم الثيران لم يكن في منأى عن هذا التفكك، وإذا كان الثور الكهل يظهر عجزاً عن فهم مجريات الأحداث خارج حدود المزرعة التي يعمل فيها. فإنه كان في المقابل يحس بوجود شيء ما، والدليل هو وجود الثور الخامس، وقدرته خاصة على أن يكون مختلفاً. إضافة إلى المسايرة التي تظهرها بقية الثيران نحو هذا الاختلاف.

أما الثور الرمادي، والذي تعوّد على الاسترخاء خلال فترات الاستراحة. فكان هادئاً وحذراً، ورغم هدوئه الواضح، وطبعه المسالم. كان يخفي الكثير من العناد، والكثير من الغباء أيضاً.

يبقى الثور الصغير، وهذا الثور كان أبعد ما يكون عن الثيران وهمومها. إذ نادراً ما كان يستريح معها، أو يتطفّل على ما يدور بينها.

وأخيراً كان هناك المشرف على أعمال الثيران، وكذلك المفتش الذي يأتي لمعاينة واقع الأعمال بين وقت وآخر. مع أنّ هذين الرجلين لم يكونا في وضع أفضل من وضع الثيران، ولم يقدما خلال وجودهما في المزرعة أي مبادرة تذكر، وحتى عندما يتناقشان في واقع المزرعة والأعمال المنجزة بغية الدقة في كتابة التقرير المطلوب. فإنّ كل هذا الجهد ينتهي إلى لا شيء.

هكذا كانت حدود العلاقة بين المشرف والثيران، وإذا كان المشرف مقتنعاً بهذا الدور ومكتفياً به. فلأنه كان مقيماً في المزرعة، وحاله لا يختلف كثيراً عن حال الثيران.

على هذا النحو كانت الأيام تمضي، والثيران تعيش في تلك المزرعة خانعة قانعة. لا تزاحم أحداً، ولا يزاحمها غريب. فالمزرعة

محددة بمساحتها إضافة إلى عدد الثيران المقيمة فيها. إذ لا حاجة لثور جديد، ولا رغبة للقديم في الانتقال خوفاً من الضياع في مجاهل الحاجة والتشرد.

أغلب الظن أنّ هذا السبب هو الذي جعل الثيران مطمئنة إلى غدها. قانعة بنصيبها. لا حاجة لها لأن تفكر في المستقبل، ولا يشغلها المستقبل إلا بما ينعكس عليها مباشرة، وما قد ينعكس عليها لا وجود له باستثناء القلق الذي يبديه الثور الخامس.

وتتابع القصّة فتقول: إنّ الثور الخامس لم يكن راضياً عن وجوده في تلك المزرعة، وتحديداً كان يكره أن يظلّ مربوطاً في مزرعة بائسة إلى الأبد، ولاحقاً أصيب بكآبة قاسية. ما جعله يترك المزرعة بمن فيها.

لقد قصد هذا الثور إحدى المزارع المشهورة جداً حيث سلك طريقاً لم يسلكها من قبل، وفي طقس قد يكون الأسوأ. فقد كان الشتاء يتجه إلى مزيد من القسوة. خاصة اشتداد العواصف، وسقوط الأمطار والثلوج، وبسبب هذا الطقس. واجه الثور الخامس صعوبة في اجتياز الوديان العميقة التي تكثر فيها الأنهار والسيول، وحتى الجبال المكسوة بالثلج لم تكن سهلة المنال.

لكن تصميم هذا الثور على الانتقال لطالما أحيا في نفسه الأمل، ولولا هذه الفسحة من الأمل لما تحمل الجوع والعذاب. مع أنّ هذا الثور لم يكن قوياً إلا بعزيمته ورغبته في استبدال المكان.

لكن الرياح والأمطار حاصرت الثور الخامس في منطقة تكثر فيها الأغوار العميقة. فبات ليلته في مغارة كانت في وقت ما ملجأ للطيور، وكان في المغارة غراب استوطنها منذ أول الشتاء. فتسامر الثور مع الغراب معظم سواد الليل، وفي الصباح غادر الغراب المغارة تاركاً أمام هذا الثور المتهور مجهولاً لا يحسد عليه.

هذا ما قاله الغراب الذي وجد المغارة خالية عندما عاد إليها. لقد وجدها خالية من أي أثر، وحتى في الجوار لم يكن هناك من أثر لذلك الثور. الثلج الذي تساقط دون انقطاع غطى وجه الأرض، ومع استمرار العاصفة لعدة أيام لم يكن باستطاعة الثور الخامس الإفلات من جنون تلك العاصفة. فانقطعت أخباره، وانمحت آثاره، وهكذا بقي الغراب الشاهد الأخير الذي راح ينقل بعض الأخبار عن هموم هذا الثور ورحلته الغريبة.

الفصل الثامن عشر

انتهت قصّة الثور الخامس قبل أن نفترق بوقت قليل، وحين افترقنا بقيت أفكر في مصير الثيران الأخرى. حيث بقي مصيرها مرهوناً بخيال المؤلف وما قد يختاره لها من أقدار، وإذا كان صحيحاً أنّ الثور الخامس انتهى بطريقة لا يحسد عليها. وجدت في قصّة هذا الثور فرصة للشعور بالمأساة.

«هكذا أنا دائماً. عندما لا توجد قصّة حقيقية. أجد نفسي مضطراً للاهتمام بأية قصّة سخيفة، وأنت أيها الثور الصامت تستطيع أن تقدّر لماذا أروي لك كل هذا السخف».

عندما استلقيت على سريري. أخذت أتأمل على طريقتي مأساة هذا الثور المغامر، ثم نمت، ولست أدري كم نمت؟ كل ما أذكره أنّ والدتي كانت نائمة عندما عدت إلى البيت، وها هي توقظني لأسمع في الحال صوتا يستغيث. صوت ضعيف لا يشبه أبداً خوار الثور التائه.

ومع أنني تجاهلت نداءات أمي مركزاً انتباهي على ذلك الصوت الذي قد يشير إلى وجود الثور الخامس. إلا أنّ وهمي هذا ما لبث أن تبدّد تماماً. إذ أنّ اقتراب الصوت ووضوحه المتدرج أخرجني من الوهم الذي كنت فيه، وحالماً خرجت إلى الطريق ملتحقاً بأمي. وقعت عينيّ على أكثر من امرأة كنّ يولولن جميعهن.

كانت حليمة في المقدمة، وهي التي أخبرت والدتي أنّ زوجها تزحلق على الأرض فانكسرت ركبته الاصطناعية، ولأنها لم تستطع رفعه عن الأرض. طلبتْ المساعدة من جاراتها. فساعدنها كما قالت في وضعه على مقعد مناسب. بعد ذلك خرجت من المنزل لتبحث عن رجل يساعدها في نقله إلى المشفى.

عندئذ انطلقت إلى الساحة فوراً، ومن هناك أحضرت سيارة عامة لنقل إبراهيم. إذ كانت إصابته بالغة جداً، وكان يشتم الذين تخلوا عنه بعد أن بذل من أجلهم زهرة شبابه كما قال.

باختصار كان إبراهيم مصاباً وسميناً ومنفعلاً إلى حدّ الهذيان، وكان يبكي. حتى زوجته لم تتوقف عن ذرف دموعها بصمت. في حين كنت أكابر حتى لا أبكي مع المرأة التي كانت تبكي.

لعل أكثر ما يهين الرجل هو شعوره بالعجز، وإبراهيم كان عاجزا إلى الحدّ الذي يقطّع القلب. فبالإضافة إلى ركبته المكسورة وهي اصطناعية على كل حال. كان هناك في أسفل قدمه الأخرى فتحة لا تندمل، وأكثر من ذلك فإنّ الرجل ما انفك يتحمل آلامه منذ عقدين تقريباً، وراتبه التقاعدي لا يؤمن له ثمن الأدوية التي يحتاجها. هذا غير أجور السيارات التي يدفعها لقاء زياراته الدائمة إلى المشافي.

إنّ قصّة هذا الرجل لطالما وضعتني أمام جدار أعلى من قدرتي على القفز، والصراع مع هذا الجدار ليس كل شيء. لأنّ الدول التي استعمرتنا. إضافة إلى قراصنتهم الصهاينة أوجدوا حراساً لهذا الجدار، وإذا كان إبراهيم شاهداً على دموية هذا الصراع فإنّ صدق شهادته يتأتى من ألمه ومعاناته. تلك المعاناة التي لم تتوقف منذ أن خرج حيّاً من الضربة التي تعرض لها.

ثم وصلنا أخيراً إلى المشفى، وتحديداً إلى غرفة الإسعاف حيث قام أولئك العاملون الذين يرتدون ملابس بيضاء بإسعافه. أما أنا فقد غادرت المشفى إلى مقهى الشاطئ لأتصل من هناك بصديقي يوسف.

لقد رغبت بقضاء وقت مريح معه. فلما حضر يوسف وكنت ما أزال أشرب الشاي الذي طلبته. طلب لنفسه شاياً وأركيلة، ثم أخبرني أنه كان ينتظر اتصالاً ينقذه من مجالسة الموظفين التعساء. فلما جاءه الاتصال استبشر خيراً، وعندما سمع صوتي طارت من رأسه صورة المائدة التي ارتسمت في مخيلته.

قال إنه توقّع أن يكون الاتصال من المهندس مازن، ولو أنّ مازنا هو الذي اتصل به لكان الآن في مطعم المغارة ينعم برائحة الأطباق الشهية، ثم قال وهو يمرح:

- هل تسمح لي بالاتصال به؟ سأخبره أنني مع الرجل الذي يبحث عنه.
- ومن هو الرجل الذي يبحث عنه؟
- هو يبحث عن رجل يستطيع إبعاد زوجته عنه. الرجل لطش الكثير من المال قبل أن يستقيل من وظيفته، والمال أبعده عن زوجته. تصور. إنه لم يعد يحبها، ولكي تدعه وشأنه يريد أن يشتري لها وظيفة بالمال. لكن حتى التوظيف بالمال أصبح صعباً.
- لا أظنك ستسخر مني بهذه الطريقة؟

قلت له ذلك ووجهي يفضح رغبتي في الشجار معه:

فقال يوسف معتذراً:

- معاذ الله. كل ما في الأمر أنني أمزح.

وبعد أن هدأت. تابع يوسف قائلاً:

- إي. نعم. أكلت على حسابه ثلاث مرات في مطعم المغارة. إنني أوهمه بإيجاد الرجل المناسب، وإلى الآن لم أجد هذا الرجل.

- المهم إلى أين سنذهب الآن؟

- نذهب إلى حيث تشاء، ولكن لِـمَ لا تدعني أتصل بهذا الرجل؟ إنه أحد أبطال هذا الزمان، وأنت تحب لقاء الأبطال. آه..؟!

قلت:

- أعرف أنك تسخر من هذا الرجل، وإذا وافقتني يمكننا أن نبحث له عن اسم آخر. المهم أن يخرج من وعينا قبل فوات الأوان.

- يعجبني نصف رأسك الذي تفكر به.

- ماذا؟

- أنت تفكر بنصف رأسك فقط، والنصف الآخر تستخدمه في الألعاب.

- الحمد لله أنني جعلت منك فيلسوفاً، ولكن ماذا عنك أنت؟

- ماذا؟ وهل أنا مثلك؟

- لقد سبقتني إلى ما كنت سأقوله عنك، وسبقتني إلى الحديث عن صاحبك النصاب قبل أن تعرف لماذا أنا هنا؟

- لماذا؟

- نقلت إبراهيم إلى المشفى. المسكين تزحلق فانكسر مفصل ساقه.

- لم أكن أعلم، وحتى لو علمت ماذا أستطيع أن أقدم لهذا الرجل؟ إنني لا أملك فائضا من الحزن لأصرفه على إبراهيم، ولا بد أن توافقني بأنّ التراجيديا التي نشهد فصولها الآن تجاوزت إبراهيم وكل الضحايا الذين سبقوه. يا رجل. نحن لا نعرف من ندفن ومن نعزي، ولهذا تراني أسرق لحظة البهجة لأطرد بعض أحزاني. فلمَ لا نلهو بعض الوقت؟ وبعد الغداء

نذهب معاً إلى المشفى. إنني أعرض عليك حلاً عادلاً. أنت لا علاقة لك بالمهندس، ويمكنك أن تظل صامتاً، وإذا أردت أن أقدمك باسم آخر فسوف أفعل. المهم أن تقبل دعوتي، وأعتقد جازما أنك لن تندم.

تكلم يوسف بكثير من الانفعال، وحرّك يديه كثيراً ليقنعني بوجهة نظره، وإذ رآني صامتاً لا أبالي. انطلق إلى الهاتف منتصب القامة يمشي. فأجرى محادثته وعاد ليخبرني أنّ المهندس سيكون بانتظارنا في مطعم المغارة بعد ساعة من الآن.

- ماذا قلت للرجل؟

- لا شأن لك به، وكما اتفقنا يمكنك أن تبقى صامتاً. أما الآن فيمكنك الخروج فوراً، وأنا سألحق بك بعد أن أدفع الحساب.

هكذا خرجت، وعندما لحق بي يوسف أخبرني وهو يضحك بصوته الرنان أنه تملص من دفع الحساب. عندئذ نظرت إليه معاتباً، ولكنْ كنا قد وصلنا إلى زاوية الشارع. فقال يوسف:

- هل أنت غاضب؟

- ببساطة أنا لا أحبذ السير مع شخص يتملص من دفع الحساب، ولا أدري كيف سأذهب معك لأجلس إلى مائدة رجل قد يكون أسوأ منك؟

- ألم ننته من هذا الجدل؟

- حتى لو أردت. لا أستطيع. ألم تقل إنني أفكر بنصف رأسي فقط. إنني لست مختلفاً عنك، ولا تحسب أنني أعيش بلا أخطاء؟ لقد أخطأت، ولكن ليس بالقدر الذي يجعلني أخجل. ربما أنا خجل لأنني لم أرتكب أخطاء تستحق الذكر.

- يا إلهي!

لم أعقب على دهشة يوسف لأنّ سيارة عامة كانت تغص بالركاب توقفت عند زاوية الشارع. فصعدنا إليها وصعد إليها آخرون، وقبل أن تنطلق السيارة حيث كانت هناك امرأة تصعد مع طفلها. حدث أنّ سيارة يقودها ضابط شرطة توقفت هي الأخرى بسبب ضيق الطريق.

كل هذا أثار حنق الضابط الذي صرخ في سائق السيارة معاتباً. فأعتذر السائق وقال في معرض حديثه ما معناه: إنّ امرأة تصعد إلى السيارة ومعها طفل وأنت تعرف الأطفال... و... و...

عندئذ لعن ضابط الشرطة ربّ الأطفال، وهاج وماج لأنه ضابط شرطة وما إلى ذلك. غير أنّ شاباً في مقتبل العمر لم يهن أمام ضابط الشرطة هذا. فصرخ في وجهه قائلاً:

- عيب عليك أن تسب ربّ الأطفال. أنت ضابط شرطة، ومثلك يجب أن يكون قدوة لأمثالنا. لكن ويا للأسف.

فردّ ضابط الشرطة بانفعال، ولم يكن ينقصه الانفعال:

- من تكون أنت حتى تحاسبني؟

- أنا مواطن من هذه المدينة، وأغار على أطفال هذه المدينة.

هكذا حدثت مشادة استمرت بعض الوقت. ضابط الشرطة أرهب سائق السيارة بمنعه عن الحركة بغية اصطحاب الشاب معه إلى المخفر، والشاب ظلّ على موقفه يجادل الضابط دون أن يخضع له. أما السائق فبدا كالمعتوه. إذ راح يتلعثم بكلمات ليست مفهومة، وقد استمرّ هذا الحال إلى أن خرج الشاب من السيارة متحديّاً الضابط.

حدث كل هذا ونحن صامتون. لقد همهمت فقط، وكذلك فعل يوسف. لكننا في النهاية لم نتصرف كما ينبغي لأننا لم نكن

بشراً كما ينبغي. لقد لعنت نفسي، وآه كم لعنت نفسي! حتى يوسف الذي سبقني إلى الخروج من السيارة كان قد فقد مرحه تماماً. الشيء الوحيد الذي قاله:

- نحن بشر مهزومون من (ساسنا إلى راسنا)

- ثم قال بعد لحظات من الصمت:

- كلما نظرت إلى هذا البحر أشعر أنني عاجز وتافه ووضيع. لو سافرت مرة واحدة عبر هذا البحر لتغيرت تماماً.

وطبعا لم أعترض على ما قاله يوسف. لأنني كنت مثله أحلم برؤية هذا العالم.

الفصل التاسع عشر

عندما دخلنا المطعم. فاجأتني بساطة الأثاث الخشبي العتيق، والأصداف التي تزيّن أحواض الورود. إضافة إلى حجارة الجدران الرملية والتي بقيت دون طلاء. كل ذلك أعطاني انطباعاً بأنّ المكان بسيط وهادئ. حتى الواجهة الزجاجية التي تطلّ على الشاطئ كانت تمنع وصول ضوضاء الموج إلى داخل المطعم. بحيث أنّ ذلك المطعم كان يوحي حقاً بعزلة المغارة وهدوئها. غير أنّ هذا الجمال البسيط الذي أحبه حقا لم يستطع مسح همجية ضابط الشرطة الذي لعن ربّ الأطفال، وحتى المهندس الذي استقبلنا داخل المطعم أصابته العدوى. فسألني عن سبب تجهمي.

يوسف حدثه عن ضابط الشرطة بامتعاض واقتضاب، ثم قال بعد أن فَرِغ من هذا الحديث:

- ما كان ينبغي أن نتحدث عن هذا الرجل. لأننا نريد أن نبتهج، ولا وقت لدينا لنضيعه في الحديث عن أي شيء، ثم تابع قائلاً:

- أعرفك على صديقي الذي حدثتك عنه في آخر لقاء بيننا. يومها كنت تعاني من بعض المشاكل. فتحدثنا بعشوائية وكيفما اتفق. أما اليوم فينبغي أن يكون حديثنا مفيداً.

ثم التفت نحوي وقال:

- إنّ ما أطلبه بديهي.

ابتسمت بصعوبة، وكذلك فعل المهندس الذي لم يفهم شيئاً. لقد أراد يوسف أن يسخر منا نحن الاثنين، ولعله أراد أن يحملنا مسؤولية تسليته. فوافقه المهندس بضحكة بلهاء، ولكي يعبّر بطريقة عملية عن هذه الموافقة. طلب مشروباً ومزات. أما أنا فبقيت صامتاً، وفي الحال أحس يوسف بي. فقال مخاطباً المهندس:

- عندما طلبت أن يكون حديثنا بعيداً عن الهموم والمشاكل لم أطلب ذلك من أجلي أنا، ولكن من أجل صديقي الذي نقل اليوم مريضاً إلى المشفى، وبالمناسبة نحن ننوي أن نزوره بعد أن نخرج من هنا مباشرة. إنّ هذا المريض يستحق زيارتنا، وقصّته قصّة.

فقال المهندس:

- في هذه الحالة ينبغي أن نطلب الطعام أيضاً.

- ليس بهذه السرعة.

تدخل يوسف هذه المرة أيضاً، ولكنه بدا غاضباً من فتورنا. فتابع معقبا:

- البحر أجمل منكما.

ثم وضع سيجارة في فمه وهو يقول للمهندس:

- أنت تعلمت في روسيا، ويمكنك أن تحدثنا عن تجربتك في ذلك البلد. لِمَ لم تتزوج امرأة روسية مثل غيرك؟

قال المهندس:

- ليس كل الذين تعلموا في روسيا تزوجوا روسيات.

- هذا صحيح. رغم أنّ شبابنا كانوا يرون في روسيا ملاذاً يحلمون بالدخول إليه لحل مشاكلهم الجنسية. إنني ما زلت أذكر شاعراً كتب قصيدة يهجو بها روسيا المضطربة لأنّ ابنه تاه وضاع بين الحانات والشقق المسكونة بالرذيلة وما شابه.

فأوضح المهندس قائلاً:

- انتشرت الفوضى في آخر عهد الشيوعية. هذا صحيح، ولكن من يعرف روسيا قبل هذه المرحلة لا يستطيع إلا أن يمجد هذا البلد.

قال يوسف:

- مجدنا هذا البلد من دون أن نراه. هلا طلبت لنا الطعام أيها المحترم.

عندئذ نادى المهندس عامل المطعم ليطلب منه إحضار السمك المقلي، وكان قد طلبه على ما يبدو منذ وصولنا. كما طلب شراباً إضافياً. فأكلنا وشربنا، ثم غادرنا المطعم في سيارة المهندس الذي أصر على نقلنا إلى المشفى.

حتى تلك اللحظة كان يوسف يجاهد ليعوّض عن صمتنا، وبكفاءة يحسد عليها استمر يحدثنا دون أن يغفل عن الوقت الذي أصبح عبئاً عليه. أما المهندس فكان يجاهد رغم استيائه لكي يبقى هادئاً ورصيناً، والغريب أنه لم يأت على ذكر زوجته والوساطة التي يأمل فيها. في حين بقيت أنا سلبياً وصامتاً.

عندما وصلنا إلى المشفى. كان الزوار الذين جاؤوا من كل مكان لزيارة مرضاهم يدخلون المشفى تباعاً. فدخلنا بينهم، ثم بحثنا في غرف المشفى إلى أن وجدنا إبراهيم.

وجدناه يئن من شدة الألم. حيث كان ما يزال على حاله. بل كان جرحه أشد إيلاماً مقارنة بذلك اليوم الذي خرج فيه حياً من دبابته التي أصيبت بصاروخ، وأفادنا إبراهيم بقوله: إنه الوحيد الذي نجا بالإضافة إلى قائده، ثم قال:

- يوم خرجت حيّاً من الدبابة. اعتقدت أنّ مصيبتي صغيرة مقارنة بما هي عليه اليوم. لو أنني متّ، ولو اقتحمت الدبابات المعادية مواجها الموت بصدري وروحي لما عرفت هذا الذلّ، ولكن يبدو أنني كنت ضعيف الإيمان، وكنت جباناً.

آه يا أصدقائي لو تعرفون كم أذلّني أولئك الأفراد الذين نسميهم اصطلاحاً (الأمناء) يا إلهي ما أكذبهم. حتى آلامي استثمروها لمصلحتهم. تصوروا أنهم كانوا يجيئونني بوجوه حزينة تقية نقية، وكانوا يبكون وهم يعدونني بالمساعدة والخير الوفير، ثم ينسون ما وعدوا به مباشرة بعد أن يغادروا باب غرفتي.

في كل الأحوال لم يبق لي مكان آوي إليه غير المقام. هناك أستطيع اكتساب بعض الإيمان، وأستطيع الحصول على بعض الصدقات.

فقالت زوجته:

- (الأوادم) لا يقصّرون. فلماذا الذهاب إلى المقام؟ إنني لا أستطيع تحمل هذا الذلّ.
- ما نحصل عليه لا يسد رمقنا، والأولاد؟ أريد أن أراهم رجالاً قبل أن أموت. لقد تعذبوا بما فيه الكفاية، وأنا ماذا أنتظر؟ ضعوني في المقام واتركوني.
- ماذا قال الطبيب؟

سألته لأغيّر موضوع الحديث. فأجاب إبراهيم:

- الطبيب يفكر في قطع ساقي. لو أنه طلب مني لوافقت. لكنه لا يعتبرني رجلاً. تصوروا أنّ هذه المرأة الضعيفة أصبحت مسؤولة عني، وأنا مجرد عاجز لا قيمة له.
- ماذا قلتِ للطبيب؟ هل وافقت على إجراء العملية؟

سألتُ الزوجة التي كانت تقاوم عذابها بكثير من الصبر. فقالت:

- لم أوافق... لا أستطيع.

- لكنّ هذه الساق ستؤدي بي إلى الموت.

فاستدركت الزوجة قائلة:

- لا أستطيع أن أوقع، ولا أريدك أن تموت.

- أنا أوقع.

فاجأنا يوسف بهذا القول بعد أن ظلّ صامتاً طوال الوقت.

فقال إبراهيم:

- خلصني أرجوك... يا ناس: الجميع يريدون الحياة، وأنا مثلهم... أريد الحياة من أجل أولادي. فساعدوني لأعيش حتى أراهم رجالاً؟! فقط لأراهم رجالاً وعندها لن أندم حتى ولو قتلوني بأيديهم.

- يبقى أن يقبلوا توقيعي... هل يقبلون؟

تساءل يوسف بصوت معذّب. فقال إبراهيم مخاطباً زوجته:

- اسألي الطبيب... هيا اسأليه... اذهبي إليه.

أصدر أوامره بعصبية لا مبرر لها. ذلك لأنّ زوجته كانت في حال لا تحسد عليها، وكانت وهي تجلس عند قدميه تمسك رأسها

بيدها اليمنى حتى لا يسقط. لأنه إذا ما سقط، وهذا ما كان يخيفها على ما يبدو. فسوف يتدحرج مثل كرة من المطاط.

المهم أنّ حليمة لم ترفع رأسها، ثم مرت دقيقة وهما على هذه الحالة. هو ينظر إليها، وهي لا تنظر إلى أي مكان. بعد ذلك جاء الطبيب بنفسه. فخاطبه إبراهيم:

- خلصني يا دكتور... أرجوك.

قال الطبيب:

- أنا أرجوك... الآن أنت عصبي، وإلى أن تزول عصبيتك هذه. ستبقى في ضيافتنا.

-كم سأبقى؟

- يوم... يومان... ثلاثة أيام، وفي الوقت المناسب سنتشاور معك في القرار الذي ينبغي أن نعتمده لمصلحتك طبعاً. اعلمْ أنّ مثل هذا القرار لن يكون سهلاً، وفي النهاية أنت من سيتخذ القرار، وأنت من سيتحمل نتائجه أيضاً... أنت وزوجتك المتعبة هذه.

ثم توجه الطبيب بالحديث إلى الزوجة فقال:

- سينام... انتبهي إليه، وإذا ما حدث شيء آخر. أخبريني.

عندئذ لم نجد ما نفعله أنا ويوسف سوى مغادرة المشفى. فودعنا إبراهيم وزوجته، ثم خرجنا على أمل العودة ثانية.

عند باب المشفى كان هناك حشد لم يكن موجوداً عند دخولنا... بل إنّ التجمع كان يزداد في كل لحظة. فاستوقف يوسف شخصاً كان يرتدي مريلة بيضاء ليسأله عما حدث. فأعلمه الرجل، وهو ممرض يعمل في المشفى. أعلمه أنّ رجلاً أطلق النار على زوجته. فلما سأله يوسف عن السبب. أفاد الممرض بأنّ القاتل كان يجرب بعض الأدعية الخاصة بإحياء الموتى. لكنه لم ينجح في هذه المرة، ولم ينجح سابقاً.

- وهل مارس القتل قبل الآن؟

- قتل زوجته الأولى منذ سنوات، ثم حاول قتل زوجته الثانية قبل أن تفرّ من بين يديه، وها هو الآن يفتك بزوجته الثالثة.

هنا صمت الممرض لحظات ثم أضاف:

- إنه مهووس. بل هو مريض، ويظنّ نفسه...؟ لا أدري؟ لطالما سمعنا بأمثال هؤلاء المجانين، ولكن ألا تسمعون بفتاوى هؤلاء المجانين، والغريب أنّ هناك من يصغي إليهم. فأصبح القتل والذبح باسم الله أمراً شائعاً.

بهذا القول ختم الرجل كلامه وانصرف. فتابعنا سيرنا نحن أيضاً. يوسف سار في المقدمة، وأنا تبعته. في حين كانت صورة إبراهيم تتبعني مثل ظلي.

لم أفكر إلى أين نتجه، ولم أرغب في سؤال يوسف عن هذا الأمر. خاصة بعد أن رأيت نفسي أغوص في مستنقع أعرفه منذ زمن بعيد. علماً أنني لم أسع لكي أرى نفسي في هذا المستنقع، ولم أكن راغباً في رؤيته، والغريب أنني سرعان ما وجدت طريقي إلى القاع الذي لم أغادره إلى أي مكان، ولماذا أغادره طالما أنّ العالم يأتي إليه. كل ما يفيض عن حاجة العالم من نفايات وغيرها يأتي إليه.

أما المستنقع فهو قديم قدم التاريخ، وله سلطة تتبنى أمنه واستقراره، وقد تشاء الصدف أن يتأثر بالمد والجزر، ونظام الحياة فيه يجمع ما بين التكلس والمرونة.

ضرورات الحياة تقضي بذلك، وكل ما تتطلبه الضرورة يمكن تبريره والترويج له، وإذا كان خيالي قد انسلخ عني ليستقر في مجاهل المستنقع ومغاوره العتيقة. فإنّ صورة إبراهيم ظلت تلاحقني.

الفصل العشرون

إنّ قدرتك على الصمت تبدو هائلة جداً... يا لك من ثور وقور. لكن يقال إنّ الثيران تثور. فهل تعتقد أنك ثرت وانته الأمر؟

إنّ شرفتك مطلّة على فضاء واسع، وزوجتك أين هي؟ سمعت أن هدوءك يثير حنقها. يوم تزوجتك كنت مسؤولاً، ولعلها حلمت في وقت ما برؤيتك أرفع شأناً وأكثر وجاهة. فبماذا تحلم الآن؟ إنها لم تجنِ من وضعك السابق سوى بعض العادات القبيحة. مثل السهر والكسل وتناول المشروب. عندما تأتيها ليلاً مضمّخاً برائحة الخمر والتبغ. ماذا تقول لك؟

آمل أن تكون علاقتك بها جيدة. يوم التقينا في الساحة عندما كنت عائداً من المشفى. أتذكر؟ حينذاك تحدثنا عن إبراهيم، وتحدثنا عن مزرعتك وتربية العجول... أتذكر؟

بعد أن رأيتك تذهب. شيعتك بنظرات فيها الكثير من الحب، وما جعلني أقف منك هذا الموقف هو وجهك الهادئ، وملامحك الجادة التي يمكن رؤيتها خاصة في وجوه الثيران. هذا غير مشيتك

وما قد توحي به هذه المشية من تواضع وانكسار... لقد بدوت لي أليفا هادئاً... لا فرق عندك أن تمشي على ساقين أو عكازين.

بعد أن تركتني. اصطادني عبد الله ليملأ رأسي بفصل جديد من روايته التي لا تنتهي. حدثني عن إبراهيم، وذكر لي أموراً لم أكن أعرفها. لقد أخبرني أنّ إبراهيم كاد أن يصبح مجنوناً قبل أن يدخل معهد المعلمين، والسبب أنه اشتغل راعياً عند والدك.

ربما كان والده أضعف من أن يحميه. إلا أنّ الأيام تغيرت في شبابه على نحو ما، وحصل على فرصته في دخول معهد المعلمين... لولا ذلك...؟

لو كان والدك رحيماً وطيباً لما حمل إبراهيم في قلبه كل هذا الألم. لكن لنعد إلى رواية عبد الله.

الحقيقة أنّ عبد الله لم يترك شيئاً لم يقله، وأخبرني بالتفصيل عمّا حدث في تلك الحفلة التي أقمتها عندما استلمت منصبك الأول. قال إنّ إبراهيم وقف يهتف بصوته الفصيح مهاجماً الاستعمار والرجعية والإقطاع.

ولأنه كان منفعلاً، أو ممتلئاً بثورويته السخيفة فقد جاء هتافه خارج السياق. مثل البكاء في حفلة عرس، أو الضحك في جنازة،

وطبعاً لم يصفق له أحد، ثم ازداد الموقف سوءا عندما وقف والدك الشيخ أمامه كالمارد، وقد توقع الحاضرون أن يسمعوا منه كلاماً مهيناً رداً على إبراهيم. فانتشروا وتهيؤا لمتابعة المشهد المنتظر، ثم مرّت بضع لحظات طويلة والجميع صامتون.

لحظات رهيبة مرّت وإبراهيم يتفرس في العيون التي أحاطت به من كل الجهات. نظراته التقت بنظرات الجميع. فلم يجد غير تلك الإشعاعات الهمجية لمحنة الجنون التي دفنها ذات يوم، ولكن من أين للمرء أن يدفن ذاكرته؟

كثيرة هي المرات التي أكد فيها إبراهيم أنّ محنته ماتت، وكثيرة هي المرات التي أكدت فيها العيون أنّ محنته لم تمت، وبين التأكيد ونفي التأكيد لم يجد إبراهيم ما يفعله سوى السقوط في عمق تلك اللحظة التي احتضنته مثل مرآة مقعّرة، وبسقوطه فيها اعتقد أنه خرج من المكان ومن الزمان أيضاً، ولعله اعتقد أنه استخدم أفضل ما لديه في مواجهة محنة الجنون عدوّته التي لم ترحمه أبداً.

كل هذا حدث في لحظة واحدة، ومن المؤكد أنّ إبراهيم الذي سقط كما يسقط الفأر في المصيدة. لم يستطع إبعاد العيون

عنه، وهو عندما سقط مغشياً. لم يعرف أي إرادة أمرته بالسقوط، ولم يعرف أنه سقط ليغيب.

الشباب الذين حملوه إلى منزله أثارتهم حرارة الجنون التي اكتشفوها بأم أعينهم، ومن لم يشهد سقوطه. وصلته عدوى الإثارة محمّلة بمشاعر الخوف والقلق. فقام بزيارته.

الجميع أحبوا هذه الإثارة وتعلقوا بها، ولكي يبقوا قريبين منها. ظلوا يترددون على بيت إبراهيم إلى أن استيقظ من غيبوبته التي استمرت حتى منتصف النهار.

لقد سرد لي عبد الله هذه الأحداث بأسلوبه المعروف والذي يقودني دائماً للتفكير بضحايا التفجيرات الإرهابية، ولأنّ أسلوبه عصيّ على الحفظ أو التقليد... كلفتني إعادة صياغة حديثه الكثير من الجهد.

ما أريد قوله هو أنني لم أستطع تحمل كل هذا السخف وهو يسقط على رأسي. فتركت عبد الله قبل أن ينهي حديثه.

مشيت مثلك تماما، وأستطيع القول أنني مشيت مطأطأ الرأس مثل ثور قضى نهاره في حراثة الأرض.

الفصل الحادي والعشرون

إنّ إحساسي بالإرهاق جعلني أسقط على فراشي كما تسقط الثمرة الناضجة، وهل تستطيع ثمرة ناضجة أن تتأخر عن موعد سقوطها؟

هكذا سقطت منكبّاً على وجهي، والسرير ارتجّ بي. فلما نمت، وليس قبل ذلك. نقلني حلم غريب إلى المقام. فكان انتقالي أشبه بانتقال الأجسام المشحونة حين تتعرض إلى مؤثر ما. كالمغناطيس أو ما شابه. لأنني لم أمش ولم أقفز. بل وجدت نفسي فجأة في المقام، وعندما استيقظت في وقت من ذلك الليل. اكتشفت أنّ حلمي كان طويلاً ومرعباً حيث طاردني ثعبان رهيب، أو لعله كان شبحا رهيباً.

كان كبيراً بما يكفي كي أرتعد من الخوف، ورأسه المنطلق كالسهم فوق عنقه كان مرعباً. هذا غير جلده الناعم والذي تبدّت زرقته الضاربة إلى السواد مثل سطح المحيط.

مشهد لا أستطيع تذكره دون أن أشعر بالخوف. ليتني لم أنم...

لقد نمت في فراشي لأستريح. فإذا بي أجد نفسي في المقام، وأسوأ ما في الأمر أنني وبدل أن أجد حبيبتي بانتظاري. وجدت هذا الشبح. فتساءلت: أهذا ما تركته لي؟ ولماذا؟ كل ما أعرفه أنّ سلوكها تبدّل خلال هذه الحرب. فكما تعلم ويعلم الجميع. لم يعد بإمكان النافذين تقديم الهدايا، والوعود، وحتى الظهور العلني خوفا على حياتهم. فانصرفت حبيبتي عنهم إلى كل من يطلب ودّها. سواء أكان جندياً، أو تاجراً صغيراً، أو موظفاً بائساً، وبسبب اضطرابها هذا لم توفر أنصاف المجانين.

مسكينة حبيبتي. فقد أضرّت بها هذه الحرب كثيراً. طبعاً هي لا تعترف بشيء مما قلته الآن، ولكن ما أعرفه عنها قد لا تعرفه هي، وليس بالإمكان تغيير سلوكها. لأنها مثل السمكة التي في الماء... لا تعرف أنها في الماء، ولا غنى لها عن استخدام كل مهارتها في السباحة والخداع والاحتيال لجذب العشاق والتنعم بمهارة كل منهم في تقديم ما يستطيع تقديمه من الهدايا وفنون العشق.

المهم أنني سرعان ما انصرفت عن التفكير بها احتراما لمحنة إبراهيم... ناهيك عن حاجته إلى مكان مناسب يلوذ به. إذ أنّ اختيار الموقع المناسب مهم للغاية، ولا بد أنني فكرت بهذا

الأمر انطلاقاً من بديهيات الواقع الذي أعرفه جيداً. خاصة عندما تضيق فرص الاجتهادات والمفاجآت، وحيث يكون المكان مسيطراً عليه بالكامل.

وبالعودة إلى بداية الحلم. فقد وجدت نفسي أجلس على جذع يابس. حيث لا خدم ولا زوار، وبانتظار حضور الخادم أو أي زائر آخر. انشغلت بالنظر إلى بقع الدماء التي فاجأتني في أكثر من مكان.

ومع توجسي واستغراقي في خيبتي. لمحت ذلك اللون الضارب إلى السواد يتربص بي، ثم دُهشت أكثر عندما رأيت رأس الشبح وقد ضاقت المسافة بيننا إلى خطوة واحدة.

عندئذ صرخت، ثم قفزت مبتعداً. بعدها رأيت الشبح ينسلّ في اتجاه آخر. أما أنا فقد تركت المقام، أو نمت بعض الوقت. حيث غاب الشبح عن ناظري، وغاب المقام أيضاً، وفي وقت لاحق. استيقظت من نومي.

وحيث كان البيت مظلماً. أظنّ أنني استسلمت للنوم ثانية، ثم وجدت نفسي مرة أخرى في المقام حيث كان هناك الكثير من الزوار الذين جاؤوا للصلاة وإشعال البخور. فانشغلت بمراقبتهم. خاصة

الذين يوزعون الصدقات. كيف يوزعونها؟ ومن هم الأشخاص الذين يحصلون على نصيبهم منها؟ وعندما لم أشاهد أحدا يوزع ماله على أولئك المتسولين المنبوذين. انتقلت إلى مكان آخر، وهناك شاهدت بقع الدماء من جديد.

أما الزوار فكأنهم لم يروا شيئاً. ما جعلني أنفر من بلاهتهم. بل إنّ هذه البلاهة أثارت ريبتي واستغرابي. خاصة وأنّ المشهد برمته كان منفراً. بحيث لم أستطع البقاء في مكاني. فغادرته حتى لا أثير جلبة قد أكون الخاسر الوحيد فيها.

ومن جديد مشيت بين الزوار الذين تجمعوا عند مدخل المقام. رغم أنهم كانوا يشكلون ازدحاماً مزعجاً، وعندما أصبحت خارج الازدحام. شاهدت صاحب الجرذان، وهذه المرة عرفته أيضاً من معطفه المنفوخ. كما شاهدت واحداً من معارفي القدماء. فتجاذبنا أطراف الحديث، وبعد أخذ وردّ. فهمت أنّ صديقي لم يجد أفضل من الصبر والاحتساب سبيلاً لقهر الصعاب، ثم قال وهو يبتسم بمرارة:

- لقد رزقني الله بهذا الولد المعاق. انظر إليه كم هو متعلّق بي؟

تأملت الولد، ثم قلت:

- إنني آسف. لم أكن أعلم.

بعد ذلك مرت لحظات شعرت خلالها بالغثيان. في حين كانت غوغاء الزوار تحيط بي من كل الجهات. نعم إنهم الزوار الذين لم يلتفتوا إلى ما كنت فيه. حيث كان البعض منهم يُعدّون موائد الطعام، والبعض الآخر كانوا يتجولون بحثاً عن مكان يستريحون فيه، وكان هناك من يجري محادثة عبر هاتفه النقال. حتى سلمان كان يحمل في خصره هاتفا نقالاً، ومن كانوا معه شغلهم حوار يتعلق بفتاوى الجهاد والتكبير على الأسرى الذين يُذبحون، أو تقطع أوصالهم.

عندئذ سألني سلمان قائلاً:

- هل جئت تطلب شفاعة المقام؟

لكني لم أجب على سؤاله. لأنني سقطت في تلك اللحظة ذاتها. سقطت بلا حراك، وعندما هرع الحاضرون لنجدتي. سمعت أحدهم يقول:

- بشرته صفراء.

قال ذلك وهو يلمس جبيني. فعقّب شخص آخر:

- لعله مصاب (بالقولنج)؟

فقال سلمان مؤكّداً:

- طالما نحن في حضرة المقام فلا خوف عليه.

قال ذلك ثم طلب المساعدة منهم لنقلي إلى داخل المبنى، ولك أن تتخيّل كيف وضعوني وعادوا إلى أشغالهم. لكن أظنّ أنّ رائحة البخور أنعشتني، وعندما استيقظت. شاهدت المرأة العرجاء تضع وسادة تحت رأسي. فسررت برؤيتها. لا أحد يستطيع التحكم بأحداث المنام، وها هي المرأة تسبقني إلى السؤال:

- لماذا وقعت؟ هل أنت جائع؟

فقلت مجيباً عن سؤالها:

- ليس المهم أن أقع أو لا أقع... لأنني وقعت كثيراً، وقفزت وتشقلبت كثيراً، وها أنا ألتقي بك ثانية. لكن حتى هذا الأمر قد لا يكون مهمّا على الإطلاق.

- وما هو المهمّ؟

- لست أدري ما أقول، ولكن هل تظنين أنّ ألعابي أهم مني؟ إنّ عيون الجميع تكاد تنطق بذلك. لكن ما أدراني كيف

تفكرين أنت أيضاً؟ أخشى أنني أزعجك بأمور لا تعنيك. فلا تهتمي بما أقول. رجاء لا تهتمي. إنني أورّط نفسي في كثير من الأحيان بأفكار لا معنى لها. لكن عندما يقدم شخص ما على القيام بلعبة ما. تبقى لعبته حتى بعد رحيله. سايكس و بيكو لعبا مرة بنا، ومع أنّ هذين السافلين فطسا منذ زمن. إلا أنّ لعبتهما مازالت تفتك بحاضرنا ومستقبلنا.

فهل هذه القاعدة صحيحة دائماً؟ لا أظنّ ذلك! لأنّ طاووز أهم من كل ألعابه، وهو عندما يقفز ويتشقلب يبقى هو المهمّ. أما دركون الثري. فهو أقل قيمة من ثروته بكثير. هذا ما يقوله الجميع، وأنا لا أجد تفسيرا لهذه المفارقات. إنني أهذي. أليس كذلك؟

عندئذ قاطعتني بقولها:

- إما أن تكون جائعاً. أو مريضاً يا سيّد الألعاب، وفي كلا الحالين أنصحك بالهدوء والانتظار.

قالت ذلك ثم أبعدت وجهها عني. فاكتفيت بمراقبتها حيث راحت تنظر إلى الفراغ نصف الكروي الذي رسمته القبة فوق رأسها تماماً.

الفصل الثاني والعشرون

بعد ذلك. أظن أنني نمت بعض الوقت. لكنّ الحلم ما لبث أن عاد ليعيدني مرة أخرى إلى المقام، وفي هذه المرة لم أشاهد أحداً. فقط كان هناك الليل الذي أخفى الأشجار تحت ملاءته السوداء ليجعل منها أشباحاً تحرس أشباحاً أخرى.

لهذا أحسست بالقلق، ثم ازداد توجسي عندما سمعت صوتاً يقول:

- ماذا جئت تفعل هنا أيها البائس؟

فسألته:

- من أنت؟

قال غاضباً:

- أنت تثير ريبتي فلا تسأل!

ولأنني لم أشاهد أحداً. صمتّ. فغاب الصوت، أو هكذا خيّل لي، ثم ما هي إلا لحظات حتى رأيت الشبح من جديد. رأيته يزحف

نحوي بجلده اللامع. فانتابتني رعشة ارتجّ لها ظلام الليل. كما تضاعف إحساسي بالخطر، وقد شعرت بخلايا جسدي تستعد لخوض معركة وشيكة الوقوع. خاصة إذا ما قرر الشبح مهاجمتي. غير أنّ الشبح لم يهاجمني، وأنا بقيت يقظاً مستعداً.

لحظات مرّت وأنا على تلك الحالة، ثم رأيت الكثير من القناديل المشرعة تدخل ساحة المقام مثل عيون وحشية، وشيئاً فشيئاً توضح المشهد بصورة أفضل. إذ رأيت أناسا يتقافزون، والبعض الآخر كانوا يتشقلبون، ثم رأيت هرماً من الرجال، وهذا الهرم كان يتقدّم بثبات.

نعم كان هناك هرم أسطوري يقاوم الفناء، وما دخول الناس وانتظامهم في هذا الهرم إلا تعظيماً منهم لأسطورتهم واعتقادهم.

وفي حين بقيت أراقب هذا الهرم. حاولت التوفيق بين ما هو أسطوري وبين ما هو حقيقي... لأنّ ما رأيته كان حقيقياً تماماً، وكنت أتساءل: من أين جاء هؤلاء الناس؟ ولماذا جاؤوا؟ حتماً كنت أستطيع أن أسأل أحدا منهم. لكن الدهشة التي اجتاحتني غيّبت هذا السؤال، ثم سمعت سائلاً يسأل:

- أين السيّد... ألم يأت بعد؟

أجابه صوت خشن:

- إنه على رأس الهرم. ألا تراه يا أعمى؟

في تلك الأثناء صاح صوت من أعلى الهرم:

- من لا يراني بإمكانه أن يسمع صوتي، ومن لا يسمع صوتي فهو أطرش... أطرش.

هذا ما قاله الرجل الذي كان يتربّع على رأس الهرم. فلما رأيته تملكتني الرغبة في الضحك. إذ كان هذا الرجل مجرد قزم لا يشبه الرجال في شيء. بل هو أشبه بتمثال بسيط لم يجد صانعه أية صعوبة في صنعه... كرتان إحداهما كبيرة بحجم بطن مكتنز، والأخرى صغيرة التصقت بها من دون عنق. أما الأطراف فكانت قصيرة جداً، وهذا ما جعلني أعتقد أنّ الصانع هو طفل ليس إلا. لكنني عندما رأيت عينيه. فوجئت بنظراته المجنونة، وفي لحظة ما تصادمت نظراتنا، ثم حدث أمر غريب حقاً. فقد قفز القزم من موقعه في أعلى الهرم. بل إنه قفز من دون سبب واضح! فتساءلت: أهو الطقس الديني؟ أم أنّ القزم يهوى القفز ويتفاخر به؟

في كل الأحوال لم أنتظر لأعرف السبب، وما إن رأيته يقترب مني حتى قفزت فوقه، ثم تكرّر الأمر من جانب كل منا. حيث

رحنا نتبارى إلى أن تبخر الجميع. الناس الذين كانوا قبل بعض الوقت مجرد هرم تحت أقدام القزم تبخّروا، ولاحقاً تبخّر القزم أيضاً.

عندئذ تلفّت كالمشدوه، وتساءلت: أين ذهب الجميع؟ والقناديل أين اختفت؟ ما بقي منها قنديل واحد، ورجل واحد.

لم أفهم ما الذي حدث؟ خاصة بعد أن رأيت الشبح يتربّص بي من جديد. عرفته من عينيه اللتين عكستا ضوء القنديل. بعد ذلك حدث أمر ما. فقد تراجعتُ بصورة مفاجئة، ولم أدر... هل سحبني الرجل قبل أن يلمسني الشبح؟ أم أنّ الشبح لمسني قبل أن يسحبني الرجل؟

كل ما أعرفه أنني صرخت، ثم استيقظت مباشرة. صورة الشبح في مخيلتي، وطرق على الباب يتناهى إلى سمعي، ثم مرت دقائق وأنا على تلك الحالة أحاول استعادة وعيي الذي غيبه الخوف والهذيان. بعد ذلك استطعت أن أغادر سريري لأضيء مصباح الكهرباء، ثم فتحت الباب لأشاهد عبد الله ملتصقاً بالأرض مثل الضفدع.

لم أتفاجأ بوجود عبد الله في تلك الحالة، ولم يخطر في بالي أن أسأله عمّ حلّ به؟ فقط سألته عن سبب زيارته لي. فأخبرني

وهو يرفع بطنه قليلاً عن الأرض بموت إبراهيم، وإذ بقيت صامتاً. أكمل عبد الله قائلاً:

- نعم جاءت زوجته من المشفى. فذهب أقرباؤه، والبقية من أهل الحي يتوافدون إلى منزله حيث يستقبلهم العجوز أبو محمد.
- وموعد الدفن؟
- غدا في منتصف النهار.

عند هذا الحدّ توقف الحديث بيننا، وعبد الله الذي اكتفى هذه المرة بنقل الخبر دون زيادة أو نقصان. غادر مكانه حالاً. لقد استدار أولاً، ثم راح يقفز مبتعداً. أما أنا فقد غادرت منزلي دون أي حركة تشير إلى مهارتي في الألعاب، وعندما وصلت إلى بيت إبراهيم. شاهدت العجوز أبي محمد يقف على رجل واحدة. حتى أنه استقبلني بعنق مائل مثل طائر أبو عنق.

هذا الأمر كان مفاجئاً، وفيما بعد توالت المفاجآت. لأنّ كل من التقيت بهم كانوا يتصرفون بطريقة غريبة. هذا يقفز، وآخر يمشي مقرفصاً. الجميع كانوا يقومون بتلك الحركات التي يمكن نقدها أو

الحديث عنها. حتى عاصم ورفاقه كانوا يتحركون مثل قطيع من الغزلان الخائفة. لكنهم كانوا يبحثون حقاً عن طريقة ما للتغلب على محنة لا يعرفون أبعادها.

في هذا الجو المهيب والذي كان ينذر بقدوم نهار حار. رأيت الحزن في وجه حليمة، ورأيت رأسها المثقل بالهموم يترنح يميناً ويساراً، وقد ذكّرني حزنها بالشجرة التي لا تخاف ضرب الحديد، ثم سمعت من يقول:

- لن تستطيع هذه المرأة دفن ألمها وإبراهيم في وقت واحد، ولا يبدو أنها قادرة على إتقان لعبة ما، وإذا لم تستطع؟ في هذه الحالة ما الذي سيحدث؟

فأجابه آخر:

- ما زال الوقت مبكراً كي تحصل على جواب، ولا أظنّ أنك ستحصل على هذا الجواب قبل مرور بضعة أعوام.

فعقّب آخر:

- الناس شبه نيام، والعجوز أبو محمد نام، ونحن ماذا نفعل هنا؟!.

عندئذ نظرت إليه لأعرف ما إذا كان ينتظر تشجيعاً من أحد، وقد أردت أن أقول له إنّ بقاءه لن يغيّر في الأمر شيئاً. إلا أن الرجل لم ينتظر.

فقلت لنفسي:

«لا بأس عليه ، ويمكنني اللحاق به».

غير أنني لم أستطع الوقوف على قرار، وكما لو كنت حقاً بنصف رأس. وجدت نفسي أتعثّر عند حدّ ما. أنت تفهمني حتماً، وأظنّ أنك تفهم لماذا جئت إليك. لقد مشيت وصورة حبيبتي في خيالي. مع ذلك رأيت أنّ السير هو أفضل ما أقوم به، وهكذا حملتني قدماي إلى هنا. فرأيتك على الشرفة، وطبعاً استغربت وجودك على الشرفة في هذا الوقت المتأخر.

فقلت لنفسي: «قد أجد عند هذا الثور الكهل ما يروق لي».

لكنّ صمتك يحيرني، وأظنّ أنّ هذا الليل الذي يمضي ليس أقل غرابة من صمتك، وفي النهاية فهو يمضي، وسيمضي حتماً ليبدأ بعده نهار جديد...

فهرس المحتوى

الصفحة

- الفصل الأول ٧
- الفصل الثاني ١٥
- الفصل الثالث ٢٥
- الفصل الرابع ٣٣
- الفصل الخامس ٣٩
- الفصل السادس ٤٧
- الفصل السابع ٥٥
- الفصل الثامن ٦١
- الفصل التاسع ٦٧
- الفصل العاشر ٧٣
- الفصل الحادي عشر ٧٩
- الفصل الثاني عشر ٨٩
- الفصل الثالث عشر ٩٩

الصفحة

- الفصل الرابع عشر ١٠٥
- الفصل الخامس عشر ١١٣
- الفصل السادس عشر ١٢١
- الفصل السابع عشر ١٢٩
- الفصل الثامن عشر ١٣٥
- الفصل التاسع عشر ١٤٥
- الفصل العشرون ١٥٥
- الفصل الحادي والعشرون ١٥٩
- الفصل الثاني والعشرون ١٦٧
الفهرس ١٧٤

يونس محمود يونس

قاص وروائي سوري.

صدر له:

- **الموت الفاسد** – مجموعة قصصية – صدرت في العام ١٩٩٦م- من منشورات وزارة الثقافة.
- **المهرج** – رواية - صدرت في العام ١٩٩٧م - منشورات وزارة الثقافة.
- **الراوي** - مجموعة قصصية –صدرت في العام ٢٠٠١م- منشورات وزارة الثقافة.
- **مأوى البوم** - مجموعة قصصية – صدرت في العام ٢٠٠٤م- منشورات وزارة الثقافة.
- **مهنة آدم** - مجموعة قصصية – صدرت في العام ٢٠٠١م- اتحاد الكتاب العرب.
- **المعبد** – مجموعة قصصية – صدرت في العام ٢٠٢١م. الهيئة العامة السورية للكتاب.

٢٠٢١م